نهاية الفاتح قتيبة بن مسلم

أحـــمـــد علـي الـســـري

أستاذ مشارك ، قسم التاريخ والآثار ، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية ، جامعة الأمارات العربية المتحدة .

E-mail: ahmedsirri@yahoo.de

الملخص

يهدف هذا البحث إلى دراسة الروايات ذات الصلة بمصرع الفاتح قتيبة بن مسلم عام 96 هـ ، والإجابة على سؤالين أساسيين تضطرب حولهما الروايات وتصل إلى حد التناقض ، وهما : هل ثبت الخليفة سليمان قتيبة في ولايته أم عزله ، وهل قام قتيبة بخلع الخليفة سليمان قتيبة في ولايته أم عزله ، وهل قام قتيبة بخلع الخليفة أم لا . وعلى أساس الإجابة على هذين السؤالين يمكن معرفة الظروف التي أدت إلى مقتله بصورة أدق .

وقد أمكن ـ من خلال فرز الروايات وتمحيصها ـ التحقق من أن الخليفة لم يقر قتيبة على ولايته كما ذهبت إلى ذلك معظم المصادر والمراجع الحديثة ، كما أمكن التحقق من أن قتيبة ـ على خلاف الغالب في المصادر والمراجع الحديثة ـ لم يخلع الخليفة بل أراد تطبيب العلاقة معه ، كما أظهر البحث أن مجريات الأحداث في فرغانة ومقتل قتيبة قد حدثت تحت تأثير تغير موازين القوى في مركز الخلافة وفي غياب أي موقف رسمي للخلافة هناك ، كما أظهر انعدام الصلة بين الخليفة سليمان ومقتل قتيبة بن مسلم ، وإن كان الأخير قد سقط ضحية علاقته السيئة بالخليفة سليمان .

تمهيد

يندر أن يخلو كتاب تاريخ يعالج أحوال العالم الإسلامي في العصر الأموي من ذكر الفاتح قتيبة بن مسلم الباهلي . وأنى لمؤرخ أن يتجاهل الفتوحات الباهرة التي أنجزها قتيبة في خراسان وما وراء نهر جيجون ، ووصلت إلى مشارف الصين في الثلث الأخير للقرن الأول الهجري؟ ![1] . وأنى له أيضاً ألاّ ينفث زفرة ألم وهو يتأمل النهاية المأساوية التي لقيها قتيبة وينظر في مصائر الأبطال الفاتحين؟ !

وقد اختلطت مواقف المؤرخين من نهاية قتيبة بالموقف من الدولة الأموية ومن خلافة سليمان بن عبدالملك تحديداً ، وهو الذي شهد عصره القصير ـ باستثناء دعم محاولة جديدة لفتح القسطنطنية ـ توقفاً للفتوح خلف الخطوط التي وصل إليها قادة الفتح العظام زمن سلفه الوليد بن عبدالملك ، وأوصلوا الفتوح الإسلامية إلى أقصى اتساعاتها في الغرب والشرق .

ومن أمثلة الكتابات التاريخية في هذا الاتجاه ما كتبه يوسف العش وفي سطور سريعة ، وهو أن قتيبة حاول الخروج على سليمان فأوقفه بنو تميم بالقتل ، ثم أشار إلى أقوال بعض المؤرخين الذاهبة إلى أن سليمان كان عنيفاً مع أبطال الفتح الكبار ، ولكنه يشك في ذلك معتمداً على وجود عمر بن عبدالعزيز (الخليفة الورع فيما بعد) مستشاراً لسليمان حجة لذلك[2] . أما عبدالشافي فقد استخدم لغة أرق تجاه قتيبة ، فأشاد بفتوحاته التي تتبعها واحداً واحداً ، ثم أشار إلى سوء العلاقة بين الخليفة سليمان وقتيبة بسبب موافقة قتيبة على خلع سليمان عن ولاية العهد ، وأن قتيبة قد تعجل خلع طاعة الخليفة ، وأن الأخير قد ثبته في ولايته تكريماً له ، وأن جند قتيبة كرهوا خلعه لسليمان فثاروا عليه وقتلوه[3] . ويحمل كتاب آخر لمجموعة مؤلفين الموقف بشأن نهاية قتيبة ، فيشير إلى نزع ولاية العهد عن سليمان ، وخشية قتيبة من الانتقام فقرر التمرد على سليمان على الرغم من أن الأخير ثبته في ولايته ، لكن القبائل العربية كرهت ذلك منه فقتلته[4] .

هذه الإشارات المختصرة في هذه الكتب تشكل نموذجاً للشائع المتداول عن قتيبة بن مسلم ونهايته ، وهي على هذا النحو لا يمكن أن تعد أعمالاً سابقة ؛ لأنها أوردت ما أوردت عن قتيبة بن مسلم في سياق تاريخ عام للعالم الإسلامي زمن الأمويين ، حيث لا يمكن أن تحصل قضايا التاريخ المثارة في المؤلفات العامة على قدر كاف من النقاش ، بحيث تستقصي المصادر ، وتستنطق الروايات ، وتحلل المواقف للخروج بمشهد تفصيلي ورأي يقترب من الواقع ، وهذا ما عزمنا عليه في هذا البحث الذي سيحاول تحليل الروايات المختلفة ، وإلقاء الضوء على الظروف التي لقي فيها قتيبة بن مسلم مصرعه بعد تولي سليمان بن عبدالملك مقاليد الخلافة .

وهناك مؤلّفان لقي فيهما قتيبة بن مسلم نصيباً من التفصيل يستحقان الالتفات إليهما : الأول بعنوان «**الدولة العربية وسقوطها**» لمؤلفه المستشرق الألماني يوليوس فيلهوزن ، وقد صدر هذا المؤلف عام 1902م ، والثاني : «**الثورة العباسية**» لمؤلفه **محمد عبدالحي شعبان** ، الذي صدر بالإنجليزية عام 1960م ، وترجم إلى العربية عام 1977م . ولنبدأ بكتاب فيلهوزن الذي صدر قبل أكثر من قرن ، وترجم إلى العربية نهاية الستينيات بعنوان «**تاريخ الدولة العربية الإسلامية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية**» . في هذا الكتاب خوض جيد في علاقات القبائل بعضها ببعض في خراسان ، حيث جرت الحروب المتتابعة بين القبائل . وفيما يتعلق بمقتل قتيبة بن مسلم ضم فيلهوزن صوته إلى صوت الرواية المشهورة عن مقتل قتيبة كما ترد عند الطبري والبلاذري ، وهي التي تصوره بأنه خلع طاعة سليمان بن عبدالملك ، وأهان القبائل التي رفضت فكرة الخلع فتكتلت ضده وقتلته ، لكن فيلهوزن يلقي ضوءا على طبيعة معسكر قتيبة والعلاقات القبلية السائدة فيه ، ويطرح تفسيراً لفشل ما سماه «الثورة على الخليفة» ، وهو أنه «**ليس من السهل على إنسان مهما كان كفئاً عظيم المقدرة ، مادام لا يربطه بالعرب إلا منصبه ، أن يستطيع ضمهم إلى جانبه عندما يكون ثائراً على السلطة العليا التي يستند إليها في شرعية منصبه**»[5] . وقد ألمح فيلهوزن إلى دور تميم في مقتل قتيبة ؛ لأنه وترهم بمقتل أفراد منهم من بني الأهتم ، كما أشار

إلى موقف قبائل قيس وأنها خذلت قتيبة . ومع وجاهة سبب الثورة على السلطة العليا ، إلا أن أفكار فيلهوزن فيها تعميم وإطلاق لا تصمد أمام التمحيص الدقيق للروايات كما سنبين . أما شعبان[6] فقد ناقش في كتابه القيم أحوال خراسان بوصفها مسرحاً للثورة العباسية ، كما ناقش سياسة والي العراق وكل المشرق ـ الحجاج ـ في خراسان ، وعلاقة تلميذه قتيبة والي خراسان (86 - 96 هـ/ 705 - 715م) بهذه السياسة المتمثلة في تقوية سلطة الخلافة في الأطراف ، ودمج القبائل بعضها ببعض منعا للتقاتل فيما بينها ، واستخدامها للتوسع في الفتوح . كما بين شعبان على نحو مفصل إجراءات قتيبة الإدارية والتقسيمات القبلية التي أحدثها ، بالإضافة إلى توضيحه لأسباب وجود جيش كبير من الموالي أو العجم ، سكان البلاد المفتوحة في صفوف المسلمين ، كما تتبع خطوات قتيبة العسكرية وسياساته في البلاد المفتوحة ، ومدى انسجام سياساته مع سياسات الحجاج . ويرى شعبان ، أن سياسات قتيبة في الميدان ، على الرغم من إخلاصه الشديد للحجاج ، كانت أبعد من أن تقود إلى تنفيذ سياساته ، وخاصة فيما يتعلق بدمج جيشه الضخم من الموالي مع القبائل العربية . وعلى الرغم من الاستعراض الجيد لمواقف القبائل العربية والموالي في حروب قتيبة في خراسان وما وراء النهر ، فإن شعبان لا يتوقف طويلاً لشرح الانقلاب الحاصل في معسكر قتيبة ضده بعد صعود سليمان بن عبدالملك إلى سدة الخلافة ، كما أنه يهمل نهائياً خطب قتيبة وأثرها على نهايته ، كما يهمل الروايات المختلفة حول ما نسب لقتيبة من خلع الخليفة سليمان ، وحول العزل والتولية من قبل الخليفة ، وهذا ما جعل شعبان ، فيما يتعلق بسؤالنا الأساسي حول ظروف مقتل قتيبة ، ينتهي ـ في عرضه لأسباب مقتله ـ إلى ترديد الرأي الشائع في المصادر ، وهو أن الخليفة سليمان كان قد أقر قتيبة على ولاية خراسان ، لكن قتيبة لضعف ثقته بنوايا الخليفة ضده أعلن الثورة دون أن يجد نصرةً من جيشه فانقلب عليه وقتله . وباستثناء ذكر سبب انقلاب الموالي من حرسه الخاص ، والذي سنناقشه في موضعه ، لا يقف شعبان طويلاً عند أسباب انقلاب باقي القبائل عليه . وهكذا ترك شعبان الباب مفتوحاً أمام دراسات تحليلية لأيام قتيبة الأخيرة ، وهو ما نأمل أن تفعله هذه

الدراسة للخروج بمقاربة تاريخية ألصق بالأحداث لذلك الوقت .

قتيبة والحجاج بن يوسف الثقفي

ولارتباط مصير قتيبة بصلته بالحجاج بن يوسف الثقفي كان لا بد من عرض هذه العلاقة أولاً . فقد اصطنع الحجاج لنفسه رجالاً يشبهونه في الشدة والقوة والشكيمة ، ولم تخطئ تصوراته فيهم ، فكان أن عين قريبه محمد بن القاسم الثقفي عام 91 هـ/ 710م ، والياً على جهات السند ، ففتح في تلك البلاد وأوغل ، كما عين قتيبة بن مسلم الباهلي على خراسان عام 86 هـ/ 705م ، فطوح بممالك ما وراء النهر ، ووصلت فتوحاته إلى كاشغر ، وهي من أعمال الصين عند الحدود الشمالية الشرقية .

وقد كان الحجاج لهذين الفاتحين العظيمين السند القوي في العراق وعند الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك ، إذ كان يدعمهما بما احتاجا إليه من مال وسلاح ورجال ، بل كان يوجههما من العراق باتجاه الأهداف العسكرية المطلوب طرقها . لكن السند المعنوي كان أهم سند لهما ، ولقتيبة بن مسلم الباهلي خاصة ، وهو ينتمي إلى قبيلة عدها العرب من القبائل العربية التي لا يتشرف أحد بالإنتماء إليها[7] ، وسيقوم هذا النسب القبلي بعدئذ بدور في تحديد مصير قتيبة . فقتيبة بن مسلم صنيعة الحجاج أصلا وأحد أركان قوته ، حتى إن قتيبة في عهوده مع أهالي البلاد المفتوحة كان يضمن تنفيذ العهود بذمته وذمة الحجاج بن يوسف[8] ، كما أن قتيبة ـ وتعبيراً منه عن عمق صلته بالحجاج ـ سمى ولده الثاني الحجاج ، وفي هذا ما يكفي من الدلالة على طبيعة العلاقة بين الرجلين[9] . وقد أدرك المستشرق الإنجليزي جب طبيعة العلاقة بين الحجاج وقتيبة ، فذكر أن ما أحرزه المسلمون من نجاح فيما وراء النهر يرتبط أشد الارتباط بالتنسيق الكامل بين القيادة العبقرية للحجاج والكفاءة العسكرية لقتيبة ، ويضيف أن الأطراف العربية جميعها في معسكر قتيبة أدركت أن وراء قائدهم العسكري تكمن سلطة الحجاج[10] . ويبدو أن الطاعة المخلصة والنجاح الكبير الذي أصابه قتيبة قد وطد العلاقة بينه وبين الحجاج على نحو خاص ، لا سيما والحجاج محاط بأعداء

وأنصاف أصدقاء من كل جانب . وتظهر المراسلات بين الرجلين أن الحجاج كان يتعهد قتيبة بالكتابة إليه في كل الشؤون ، حتى إنه يرسل له كتباً ليخبره بدنو أجله[11] . وبموت الحجاج خسر قتيبة سنداً أساسياً كان يعول عليه في كل شيء[12] ، حتى عاد بعد ذلك من غزواته إلى مرو وكأنه يعلن انتهاء دوره التاريخي هو الآخر ، لكن الخليفة الوليد وقد عرف له فضله وبلاءه ومؤزارته له في محاولته تثبيت ابنه عبدالعزيز وليا للعهد بدل أخيه سليمان ، وإدراكاً منه لما كان يمثل الحجاج لقتيبة ، كتب إليه يقول : «**قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدك واجتهادك في جهاد أعداء المسلمين ، وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك الذي يجب لك ، فالمم مغازيك ، وانتظر ثواب ربك ، ولا تغب عن أمير المؤمنين كتبك حتى كأني أنظر إلى بلائك والثغر الذي أنت فيه**»[13] .

قتيبة وولاية عهد سليمان

كانت محاولة الخليفة الوليد بن عبدالملك تنحية أخيه سليمان ، أمير فلسطين ، عن ولاية العهد لصالح ابنه عبدالعزيز هي التي تدخلت لتشكيل العلاقة القادمة بين الخليفة سليمان وقتيبة بن مسلم . ولكي يضمن الخليفة نجاحاً لما يريد كان لا بد من الحصول على موافقة من يشاركونه القبض على أزمة الأمور وقواد الجيوش في الأطراف الواقعة تحت أيديهم جيوش الخلافة . ولم يكن سهلاً أبدا إقصاء ولي للعهد وإحلال الآخر لارتباط ذلك بيمين بيعة في عنق المبايع يكون ملزماً به حتى الموت ، بالإضافة إلى قيم الوفاء التي أعلى العرب من شأنها ، ولكي لا تصبح العهود والمواثيق موضع استهتار من أحد . وقد كان أصل الصعوبة يكمن في النظر إلى ولاية العهد بوصفها حقاً شخصياً للمبايع له ، وهو حق مدعوم بقبول الناس (بيعتهم ، أي بيمين ولاء) لهذا الحق . ولذلك كانت محاولات الإقصاء التي شهدها تاريخ المسلمين من أكثر المواقف حرجاً ، وارتبطت على الدوام بانقسامات لم تخل من إراقة الدماء .

وتذكر الروايات أن الوليد بن عبدالملك حاول إقناع أخيه بالتنازل بعرض أموال طائلة فلم يوافقه[14] . وعلى الرغم من إيعازه لبعض الشعراء بنشر أشعار

تبشر بولاية العهد لابنه عبدالعزيز ، بل على الرغم من انتصاراته العسكرية وإنجازاته العمرانية ـ فإنه لم يجد قبولاً لفكرته إلا عند الحجاج وقتيبة بن مسلم وخواص من الناس[15] ، وقد نُصح الوليد من قبل بعض خواصه بأن الناس لن يجيبوه إلى ما طلب ، ولو فعلوا هانت أيمانهم على ابنه أيضاً ، ولذلك لا بد من انتزاع التنازل من سلميان إن أراد حقاً تثبيت الأمر لولده ، وقد أراد الوليد لهذه الغاية ـ بعد رفض سليمان القدوم إلى دمشق من فلسطين ـ التوجه إلى فلسطين ليخلعه هناك ، لكنه مرض ومات قبل ذلك[16] .

وقد كانت الموافقة على خلع صاحب حق من ولاية عهده من الكبائر السياسية التي لا تغتفر ، ولذلك فإن الحجاج وقتيبة بن مسلم قد جلبا على أنفسهما عداوة سليمان بن عبدالملك ، الذي كما سنتصور لن يغفر لفعل كهذا . ويبدو أن أي تصرف من قبل سليمان مهما قسا ، وأقساه القتل ، كان سيقابل بالتفهم من الناس وفق ثقافة العقاب السائدة آنئذ .

وكان من كرامات الله على الحجاج أن يُتوفّى قبل أن يصل سليمان إلى سدة الخلافة بعام واحد ؛ إذ توفى الحجاج عام 95 هـ/ 717م ، وتولى سليمان الخلافة عام 96 هـ / 718م ، وكان موت الحجاج ضربة قاصمة لكل من قتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم الثقفي ، إذ خسرا بموته سنداً قوياً ، كما أنهما ورثا عداوات الحجاج مع الخليفة سليمان وأنصاره من آل المهلب خاصة ، وهم من الأزد اليمانية ، وآية ذلك أن الحجاج استقدم قتيبة من ولايته على الري ، وعينه والياً على خراسان بدلا من المفضل بن المهلب أخي يزيد ، فعزلهم قتيبة بعنف ، وأخذهم أسرى مكبلين إلى ولي نعمته الحجاج في العراق بناء على أوامره[17] ، فصار في نظر آل المهلب شريكا للحجاج في جرمه ضدهم ، حيث سجنهم وعذبهم وطالبهم بأموال كبيرة يؤدونها للخلافة . وكان فيهم يزيد بن المهلب كبيرهم الذي تمكن وبعض إخوته من الفرار من سجن الحجاج والذهاب إلى فلسطين ليحتمي بأميرها هناك سليمان بن عبدالملك[18] ، وليضمن له من ثم ولاء اليمانية والأزد خاصة ، وقد كانوا بأعداد كبيرة في جيش قتيبة .

وها هو ذا سليمان بن عبدالملك يصبح خليفة ويقرب إليه آل المهلب ، ويرتعد لصعوده كل من قتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم ، وقد خافا تحديدا سطوة يزيد بن المهلب وانتقامه . أما محمد بن قاسم الثقفي فقد قبض عليه وأسر حتى الموت عند عامل العراق لسليمان بن عبدالملك[19] .

بين الخليفة سليمان والقائد قتيبة

تضطرب روايات المصادر حول موقف كل من قتيبة بن مسلم من الخليفة سليمان ، وموقف الخليفة من قتيبة وتصل إلى حد التناقض . وينحصر الاضطراب في مسألتين أساسيتين هما : **هل ثبت الخليفة سليمان قتيبة في ولايته أم عزله؟ وهل خلع قتيبة بن مسلم طاعة الخليفة سليمان أم لا؟** وأهمية هاتين المسألتين تكمن في علاقتهما بمصير قتيبة بعدئذ ، وهما لذلك مدار البحث أصلاً .

ويجب التنويه إلى أن المصادر التي تعرض روايات مفصلة بتفاوت حول أحداث مقتل قتيبة بن مسلم هي بالتحديد : فتوح البلدان للبلاذري (ت 279 هـ/ 892م) ، والفتوح لابن أعثم الكوفي (ت 314 هـ/ 926م) وتاريخ الرسل والملوك للطبري (ت 310 هـ/ 922 م) . أما مصادر أخرى مثل الأخبار الطوال للدينوري (ت 282 هـ / 895 م) فيختصر الحدث كله بقوله «إن قتيبة هاج به أصحابه فقتلوه» ، وفي مكان آخر يقول «شغب عليه أجناده فقتلوه»[20] ، فيما يبرز اليعقوبي (ت 284 هـ/ 897م) خشية قتيبة من الخليفة سليمان ، وأنه ترك مرو ، حاضرة خراسان ، وأوغل بالجند حتى فرغانة القصوى[21] ، ثم يذكر أن قتيبة كتب كتابا «**فأجابه سليمان يغلظ له ، فأراد الخلع**»[22] .

ولنبدأ برواية البلاذري المفصلة التي تذكر أنه بعد صعود سليمان بن عبدالملك سدة الخلافة ، خطب قتيبة خطبة ، لكنه لم يورد منها إلا تشبيه قتيبة لسليمان بأحد الحمقى المشهورين والمضروب بهم المثل في الحمق[23] ، ثم يذكر أن قتيبة دعا الناس إلى خلع سليمان فلم يجبه أحد ، فتحول إلى شتم القبائل[24] ، ثم يعود البلاذري ليذكر أن سليمان كتب إلى «**قتيبة بالولاية ، وأمره**

بإطلاق كل من في حبسه ، وأن يعطي الناس أعطياتهم ، ويأذن لمن أراد القفول في القفول»[25] ، وهو ما رآه قتيبة تدبيرا من سليمان ضده : «**هذا من تدبيره علي**»[26] ، وبخاصة أن الرسول أمر بإعلان هذا جهاراً في الناس . وتمضي رواية البلاذري في تصوير موقف القبائل التي أحست الإهانة من شتم قتيبة ووضعته أمام خيارين . «**إن أذن لنا بالقفول كان خيراً له ، وإن لم يفعل فلا يلومن إلا نفسه**»[27] . لكنه لم يستجب لرغبتهم «**وخوفهم بالأعاجم الذين استظهر بهم عليهم فأجمعوا على حربه**»[28] ، ثم تصف الرواية اجتماع الناس إلى وكيع بن حسان التميمي ، حيث يُقتصر في تعريفه على كونه من الأعراب الجفاة ، مطاع في عشيرته ، وأنه سيقوم ضد قتيبة للمطالبة بدماء بني الأهتم من بني تميم الذين قتلهم قتيبة ، وتواصل الرواية تصوير الاستعدادات السرية ، وكيف أن زعيم الموالي (الأعاجم) حيّان النبطي مال إلى جانب وكيع فكانت مقتلة سقط فيها رأس قتيبة ، وتغلب وكيع على خراسان .

من هذا العرض يتضح أن رواية البلاذري تقرر تثبيت قتيبة في ولايته ، وأنه خلع سليمان ولم يجبه الجند إلى ذلك ، لكن ثورتهم ضده لم تكن غيرة على الخلع بل بسبب منعهم من العودة ، وتخويفهم بالأعاجم .

أما ابن أعثم الكوفي صاحب كتاب الفتوح (والذي لم يكن قد عرف زمن فيلهوزن ، والمهمل نسبياً من المؤرخين المعاصرين) فله رواية مدمجة ومطولة تتداخل فيها الأخبار وتتناقض دون تمهيد . وفي جزء من روايته ينفرد ابن أعثم بذكر أمور مهمة ، منها أن الخليفة سليمان عين يزيد بن المهلب أميراً علي خراسان ، وهذا معناه عزل قتيبة عن ولايته ، على الرغم من أن ولاية يزيد لخراسان لم تحصل عملياً إلا بعد عشرة أشهر من مقتل قتيبة في ذي الحجة من عام 96 هـ ، لكن توقع ولاية يزيد لخراسان كان هو السائد طوال الوقت ، وهو ما عبر عنه قتيبة حين علم أن الخليفة ولىَّ يزيداً العراق فقال : «**لئن ولاه العراق فقد ولاه خراسان ، اللهم إني أسألك ميتة كريمة**»[29] ؛ لأن خراسان زمن الحجاج كانت ملحقة إدارياً بالعراق . وكان توقع ولاية يزيد لخراسان من قبل قتيبة في

كل وقت الهاجس الأعظم الذي تدخل في تحديد مواقفه القادمة ، ولذلك نقل ابن أعثم عن قتيبة أنه سينظر في أمره ، لأنه يكره أن يكون في بلد وفيه مثل يزيد ابن المهلب ، وهي ردة فعل متوقعة تنسجم مع ما مر به من علاقات الرجلين . ثم ينفرد ابن أعثم أيضاً بذكر أن قتيبة كتب إلى سليمان بن عبدالملك يهنئه بالخلافة ويعزيه من أخيه الوليد ، وأنه وجه الكتاب مع رجل من الأزد ، أي من أهل اليمن ومن قوم يزيد بن المهلب تحديدا ، وهو اختيار نرى دلالته في أن قتيبة يرغب في إعطاء يزيد والخليفة معا إشارة عن رغبته في معالجة المأزق الذي وضعته فيه تطورات الأحداث ، وقد كان أخو الأزد أميناً في عرض الحال في معسكر قتيبة حين استفسره الخليفة عن ذلك ، فأخبر أن قتيبة يكره ولاية يزيد ، وأنه يظن أن قتيبة سيخالف على أمير المؤمنين . وليس في هذه الرواية ما يدعو للشك بها ، فهي تصور واقع الحال على نحو يتسق مع مقدماته ؛ فكُره قتيبة ليزيد مؤكدٌ ، وقد يحمله هذا على الخلاف لكنه لم يخالف بعد .

وأهم ما ينفرد به ابن أعثم إيراده نص كتاب من الخليفة سليمان رداً على تهنئة قتيبة له بالخلافة ، وفي الكتاب عزل رقيق لقتيبة نرى ضرورة إيراده لما فيه من تسبيب للعزل :

«أما بعد فإن الناس قد اشتد عليهم البلاء في ولاية الحجاج من الخوف والحبس والتشريد حتى ضاقت صدورهم ، وقد أحب أمير المؤمنين أن يحل عقد الخوف عنهم ، وأن ينعشهم بالعدل والإنصاف والأمن ، وقد فهم أمير المؤمنين كتابك وتهنئتك وما قد أضمرت في نفسك من الخلاف ، فلا تفسد صالح عملك بشق العصا ؛ فإن أمير المؤمنين وإن عزلك عن خراسان ولاك غيرها ، فأقبل إلى أمير المؤمنين فيمن أحببت من إخوتك وقوادك آمنا مطمئنا والسلام»[30] .

وتكمن أهمية هذا النص في أنه الوحيد المروي في المكاتبات بين قتيبة والخليفة سليمان ، وفي النص يظهر الخليفة اعترافاً بفضل قتيبة في الفتوح ، كما أنه لم يبرر عزله بما بدر منه في مسألة ولاية العهد وهي الجرم الأكبر ، بل بالرغبة في إحلال العدل والإنصاف والأمن محل ما أشاعه الحجاج من خوف وحبس

وتشريد كما يرى الخليفة ، ثم بسط له الأمان ، ودعاه إلى الشام . وطبقاً لهذه الرواية نرى أن الخليفة قد تعامل مع الموقف بحكمة وحذر شديدين ، ويبدو أنه كان قد اطمأن إلى عجز قتيبة عن قيادة تمرد ناجح بعد أن اطلع على طبيعة الأوضاع في معسكر قتيبة من رسول قتيبة إليه ومن ابن الأهتم التميمي الفارّ من معسكر قتيبة والآتي ذكره[31] . وهكذا يكون الخليفة سليمان ـ طبقاً لهذه الرواية ـ قد وضع قتيبة أمام طريقين لا ثالث لهما : إما قبول العزل والتوجه إلى الشام ، وإما إعلان التمرد .

وتنقل رواية ابن أعثم أبيات شعر تظهر قتيبة ـ إدراكاً منه لمصيره القادم وضعف ثقته بالخليفة ويزيد ـ مفكراً بصوت عال ، حيث يصف يزيد بأنه جبار العراق وأنه قد رُمي به ، ويرى الموت خيراً من الحياة الذليلة أو الهرب إلى الترك[32] .

وتظهر رواية ابن أعثم حيرة معسكر قتيبة من أمر قائده الذي لم يتخذ حتى الآن قراراً واضحاً لحسم الموقف كله . وقد طولب بذلك من بعض جنده ، لكنه لم يوضح شيئاً مما جعل الجند يعتقدون «**أن قتيبة مخالف على سليمان بن عبدالملك ، وأنه قد عزم على العصيان**»[33] .

ويواصل ابن أعثم تفرده بتصوير مواقف يصعب قبولها ، وهي أن قتيبة افتعل كتاباً على لسان سليمان فيه كلام يشبه كلام العرّافين والمنجمين ، وأن الخليفة الجديد سيفتح القسطنطينية ، كما سيفتح اللّه على يديه أرض الصين ثم يأمره الخليفة بالغزو بمن معه إلى أرض فرغانة ، وأن قتيبة دعا الناس إلى ذلك على كره منهم فتجهزوا وخروجوا إلى فرغانة[34] .

ومن الصعب تصديق هذه الأخبار ، لأن جند قتيبة ـ وقد علموا ما بين قتيبة والخليفة ـ لا يمكن قبولهم لمثل هذا الأمر ، لكن هذه الرواية تعطي فكرة عن الخطوة التلقائية التي اتخذها قتيبة بعد سماعه بخبر وفاة الوليد وأشار إليها اليعقوبي ، وهي الابتعاد بالجند عن مرو حاضرة خراسان إلى فرغانة «**جمع إليه إخوانه وأهل بيته وأوغل في أرض العجم ، حتي بلغ فرغانة القصوى**»[35] .

ويستفاد من رواية ابن أعثم أن قتيبة قد أخرج الجند الكارهين للخروج بحيلة ما كي يقبلوا الخروج بعد ما عادوا لتوهم من الغزو . كما يبدو أيضاً أن قتيبة أعد لهذه الخطوة على نحو جيد بحيث ترك جنوداً من أعوانهم العجم عند النهر[36] بعد عبوره إلى فرغانة ، يمنعون الجند من العودة إلا بإذن منه[37] ، وقد كان المنع من العودة والاستعانة بالأعاجم من أهم مسببات التوتر بين قتيبة وباقي معسكره .

وينقل ابن أعثم رد فعل الخليفة على خروج قتيبة بالجند إلى فرغانة ، وأنه كتب إلي يزيد بأن يكتب لقتيبة مظهراً الموافقة على ما فعل ، مع ضروة أن يأمر الرسول ليقول للناس : «**بأن أمير المؤمنين قد زادكم في العطايا مائة مائة ، وقد أذن لمن أحب القفول أن يقفل إلي منزله**»[38] لا سيما وقتيبة يمنعهم من ذلك . وفي الرواية كما نرى خلط واضح ؛ فلا يمكن أن يكتب لقتيبة بالموافقة ، ثم الإعلان في الجند عن حق العودة لمن أراد . كما تتعارض رواية ابن أعثم هنا مع ما أوردته رواية البلاذري التي ربطت بين إقرار الخليفة لولاية قتيبة على خراسان والإعلان عن السماح بالعودة ، على حين تأتي هذه الإجراءات عند ابن أعثم بعد كتاب العزل والتوجه بالجند إلى فرغانة . وتصور رواية ابن أعثم قتيبة فرحا برسالة يزيد ، لكنه سرعان ما أدرك ـ وهو يستمع إلى ما أذاعه الرسول من أخبار حول الأعطيات والإذن بالقفول ـ أن «**هذا الرسول قد أغرى به الناس**»[39] وهو ما يتفق مع رواية البلاذري في عد قتيبة إعلان الخليفة تدبيراً عليه ، فزاد معسكره تخلخلا . وباستثناء الإيغال بالجند إلى فرغانة بوصفه واقعاً ، يبدو صعباً تصديقُ باقي الرواية ، ومع ذلك فإن فيها صدى يعكس فزع الخليفة من حركة الابتعاد بالجند إلى فرغانة .

هذا القدر من رواية ابن أعثم التي ينفرد بها عن سائر المصادر تبين موقفين أساسيين للخليفة سليمان تجاه قتيبة وهما : العزل ، واتخاذ إجراءات لتفريغ معسكره من الجند بالإعلان عن حق العودة من فرغانة لمن أراد ، وهي كما نرى تتناقض جزئياً مع رواية البلاذري التي تثبت التولية ، وتتفق في الجزء الآخر الذي

يشير إلى إجراءات التفريغ . ثم يبدأ ابن أعثم بعد ذلك ودون تمهيد إلا بكلمة «قال» : يبدأ رواية أخرى وهي المنسوبة إجمالاً لأبي مخنف والشائعة في معظم المصادر كالطبري ، وابن الجوزي وصاحب «العيون والحدائق» ، وابن خلكان والنويري ، وغيرهم ، وهي التي أخذ بها أيضاً المؤرخون القدامى والمحدثون ، وتفيد ـ بعيداً عن المقدمات المهمة التي انفرد بها ابن أعثم ـ أن قتيبة بن مسلم أدار خيارات ثلاثة في رأسه توقعها من الخليفة سليمان ، وكتب كتباً ثلاثة بناء على ذلك . في الكتاب الأول تهنئة بالخلافة وعزاء بأخيه الوليد وعرض بالطاعة لسليمان إن هو لم يعزله ، أي أن قتيبة يشترط البقاء في ولايته ليعطي للخليفة طاعة كالتي أعطاها سلفه . وفي الكتاب الثاني ذكر قتيبة فتوحاته العظيمة وبلاءاته فيها ، كما ضمن الكتاب ذما لآل المهلب ويمينا لئن استعمل الخليفة يزيد على خراسان ليخلعنه . أما الكتاب الثالث فقد ضمنه خلع الخليفة ، أي عدم الاعتراف بخلافته ، ومن ثم الاستقلال بخراسان وما فتح من بلاد . وتذكر الرواية أن هذه الكتب الثلاثة بعثت للخليفة مع رجل من باهلة ، وكان قتيبة كما تفيد الرواية قد تصور مشهد المقابلة مع الخليفة سليمان في دمشق ، وأنه سيكون بحضرة يزيد ، فطلب من رسوله أن يعطي الخليفة الكتاب الأول فإن قرأه وألقاه إلى يزيد بن المهلب فليعطه الثاني ، ثم الثالث إن دفع الثاني إلى يزيد أيضاً ، أما في حال عدم رفع الكتاب الأول إلى يزيد فليحتبس باقي الكتابين عنده . ثم تذهب الرواية في تصوير الموقف في دمشق تماماً كما رسمه قتيبة في فرغانة ، وتجعل سليمان يستقبل رسول قتيبة في حضرة يزيد ، ويقرأ الكتاب الأول ويدفعه إلى يزيد ، كما يدفع الثاني أيضاً إليه ، ثم يقرأ الثالث الذي فيه الخلع فيتغير لونه[40] . وينقل الطبري عن مجموعة من الرواة رواية أخرى منسوبة لأبي عبيد معمر بن المثنى ذكر فيها وجود ثلاثة كتب من قتيبة لكن بمضامين تختلف عما ذكرته رواية أبي مخنف . ففي الكتاب الأول وقيعة في يزيد بن المهلب ، وفي الثاني ثناء على يزيد ، وفي الثالث تهديد بخلع الخليفة خلع النعل ، وبحشد الخيل والرجال ضده إن لم يقره الخليفة على عمله[41] .

ومن العسير تقبل هذا التصوير المسرحي العالم بالغيب والمتحقق

بحذافيره . أما أن يكون قتيبة قد ضمن كتبه تهديداً للخليفة بالخلع فأمر غير متوقع عند أخذ طبيعة معسكر قتيبة في الحسبان ، بل إن تطبيب العلاقة مع سليمان ومحاولة استرضائه وقد صار الخليفة هو الأولى ، وهو ما يمكن أن نتصوره في مثل هذه الظروف ، وهو الذي تضمنه كتاب التهنئة الذي أورده ابن أعثم . وقد تحدثت الرواية عن هذا الاسترضاء في واحد من الكتب لولا أنه ختم بتهديد بالخلع إن لم يوله الخليفة ، وآثر عليه يزيد . ويبدو أن هذه التهديدات دسائس باطلة ومن زيادات الرواة ، ولا سيما أن مضامين الكتب لا ترد بنصوصها ، بل بالرواية الشفوية ، وغياب نصوص مراسلات مهمة بهذا القدر إنما يغري باستنتاج عدم وجودها أصلاً ، وبخاصة مع وجود رد الخليفة الوارد في رواية ابن أعثم بالنص ، وهو ما يشهد على بطلان ما يروى هنا من مضامين فيها التهديد والخلع . زد على ذلك أن الطبري يورد روايتين متناقضتين بشأن موقف قتيبة من يزيد ؛ حيث نجد في الرواية الأولى تحذيرا من استعماله بدلاً منه ، وفي الرواية الأخرى حديثاً عن كتابين يحملان موقفين متضادين من يزيد ؛ حيث كان الأول وقيعة به ، وكان الثاني ثناء عليه . أما موقف الخليفة من هذه الكتب حسب هذه الرواية فيرد على الوجه الآتي : يذكر الطبري أن الخليفة كافأ حامل الكتب بصرة من المال ، وأقر قتيبة على خراسان ، وأرسل له عهداً بذلك مع رسول من قبله[42] . لكن عهد التولية وصل بعدما أعلن قتيبة الخلع فاضطرب الأمر . أما رواية ابن أعثم المتصلة بالكتب الثلاثة فتصور رسول الخليفة سليمان عائداً بالعهد من حلوان بعد علمه بخلع قتيبة ، وأن رسول قتيبة المرافق لرسول الخليفة أخبر قتيبة بعد عودته بأنه كان أتى بعهد الولاية ، ثم عندما سمع رسول الخليفة بخلعك عاد إلى صاحبه بالعهد . وعندها ، كما تصور الرواية ، ندم قتيبة على ما عزم عليه من الخلع والعصيان[43] ، وهكذا نقف ثانية أمام روايتين كلتاهما تثبت التولية أول الأمر ، لكن إحداها تجعل العهد يصل بعد الخلع ويحدث الاضطراب . أما الثانية فتجعل التولية أمراً باطلاً بعد علم رسول الخليفة بخلع سليمان ، فإذا أضفنا إلى هاتين الروايتين رواية أبن أعثم الأولى عن العزل المؤيد بنص كتاب نكون أمام روايات مضطربة ؛ إذ يثبت بعضها التولية ، وبعضها

يثبت العزل مع غياب أي تزمين لهذه المواقف ضمن الأشهر الستة الفاصلة بين خلافة سليمان منتصف جمادى الآخرة سنة 96 هـ/ 715م ، ومقتل قتيبة في ذي الحجة من العام نفسه .

ونحن نعتقد أن الخليفة سليمان قد تعامل مع موضوع قتيبة بحذر وتأن شديدين . وللاقتراب من موقفه الحقيقي وسط هذه الروايات المضطربة لا بد من النظر إلى موقف الخليفة سليمان تجاه قتيبة بوصفه جزءاً من سياسته العامة تجاه العراق بل تجاه كل المشرق ، وهي السياسة التي أوضحها في كتابه لقتيبة والقاضية بإصلاح ما أفسد الحجاج ، وإنعاش الناس بالعدل والإنصاف والأمن ، بالإضافة إلى سياسته المتعلقة بوقف التوسع واسترداد الجيوش من مناطق ما وراء النهر[44] . وقد سَهُل الأمر على الخليفة سليمان في العراق بعد موت الحجاج ، فتمكن من خلال واليه يزيد وبيسر من إزاحة أعوان الحجاج ، بل من الانتقام منهم[45] ، كما تخلص بيسر من فاتح الهند والسند محمد بن القاسم الثقفي الذي أخذ أسيرا ومات في سجنه[46] . أما قتيبة فقد كان لا بد من الأخذ بعين الاعتبار انتصارات الرجل وفتوحاته العظيمة فيما وراء النهر وما يقع تحت يده من قوة ضاربة ، ثم وجوده بعيداً عن متناول يد سليمان من الناحية العسكرية ، ومن ثم إمكانية تمرده بنجاح ، كما فعل قبله بسنوات ليست بعيدة ابن الأشعث ، وما رافق ثورته ضد الحجاج والخليفة الوليد من حروب ودماء في دير الجماجم أزهقت الأرواح ، وأتت على الأخضر واليابس ، وهددت هيبة الخلافة وشرعيتها في العراق ، بل في كل المشرق[47] . فإن رجحنا الروايات التي تتحدث عن تثبيته والياً لخراسان لكل تلك الاحتياطات فسيبدو الأمر منطقياً ، لولا أنا لا نجد أثراً لهذه التولية في مسرح الأحداث التالية كما سنرى ، بالإضافة إلى اضطراب الروايات نفسها ، بل إن ربط الروايات بين التولية وأمر الخليفة بالإعلان الجهري عن الإذن للناس بالعودة ، وإخراجهم من السجن ومنحهم أعطياتهم ، ورؤية قتيبة لهذا الأمر تدبيراً من قبل الخليفة ضده ، ثم إصراره على منع الناس من العودة ، ليشهد على أن التولية لم تتحقق ، وإلا لسقطت الحاجة إلى إعلان عن الإذن بالعودة ، ولكان قتيبة نفسه قرر العودة إلى مرو بعد زوال مبرر الإيغال إلى

فرغانة بالتولية ، كما أن غياب أي نص رسمي يثبت التولية يزيد من وجهة النظر هذه وجاهة ، لا سيما مع وجود نص كتاب بالعزل لا يختلف عن المكاتبات المألوفة لذلك الوقت . والراجح ـ أمام دقة الموقف وخوف الخليفة من تمرد قتيبة ـ أن الخليفة قد أشاع رغبته في إقرار قتيبة على خراسان لثنيه عن أي تمرد محتمل ، كما أشاع عبر أعوانه وعيونه إذنه للناس بالعودة من الغزو ، ومنحهم أعطياتهم لإفراغ معسكر قتيبة من مادة التمرد ، كما لا بد من ترجيح أن الخليفة سليمان لم يعجل في أمر قتيبة ، وأخذ يتعرف أكثر فأكثر على طبيعة معسكر قتيبة حتى اطمأن من رسول قتيبة ومن ابن الأهتم ومن عيونه[48] بأن قتيبة ـ وبسبب تغير موازين القوى في مركز الخلافة ، وظهور التناقضات القبلية في معسكره ، وتبرم الجند منه بسبب منعهم من العودة ؛ والاستقواء عليهم بمواليه الأعاجم ـ غير قادر على قيادة تمرد ناجح في موضعه . ولما تأكد الخليفة من ذلك قرر عزل قتيبة برفق أيضاً ، مسبباً العزل بالرغبة في إسدال الستار على زمن الحجاج وبطشه ، أي أنه حتى في قرار العزل كان لا يزال في غاية الحكمة والحذر والرغبة في طمأنة قتيبة إلى مصيره . ثم تأتي خطبة قتيبة التي سنستعرضها بعد قليل لتؤكد بُطْء إجراءات الخليفة تجاه قتيبة الذي لم ينتظر رد الخليفة على تهنئته له ، بل استعجل معرفة موقف الجند من هذه الأزمة ، فجرت الأحداث بعدئذ في معسكر قتيبة في غياب أي موقف رسمي من قبل الخلافة ؛ لتريث الخليفة سليمان في اتخاذ تدبير ما أولاً ، ولانشغاله بالتغيير الكامل في الولايات والأقاليم الأخرى . إن علينا أن نتوقع موقفاً واحداً للخليفة تجاه قتيبة لا أكثر : إما التولية ، وإما العزل . ونحن نرى العزل الذي قرره الخليفة بعد طول نظر . وكتاب العزل المثبت بنصه عند ابن أعثم هو الذي نرى أنه كان في الطريق إلى خراسان فوصل بعد مقتل قتيبة ، أو استرد فخفت لذلك أثره في الميدان وفي الروايات ولم يثبته إلا ابن أعثم ، لأنه بدا لأعوان الخليفة ، كما نرى ، أن إشاعة الخلع والتولية معاً بعد مقتل قتيبة أوفق للأحداث ، لإظهار قتيبة مستحقاً للقتل بسبب خلعه الخليفة الذي ـ حسب ما أشيع ـ ولاه ثانية بالرغم مما سلف منه ضده .

هذا هو لسان الحال الذي نتصوره في المعسكر المعادي لقتيبة ، ووجد

طريقه إلى التدوين فغلب ـ بسبب طبيعة الإرجاف ـ على رواية بالعزل مؤيدة بنص ، وهو شأن الحقائق التي تبقى يتيمة وسط الإشاعات التي يطلقها الخصوم ، وتشيع متلونة متضاربة تماماً كما يحدث في زماننا هذا . وبهذا نكون قد حررنا المسألة الأولى عن العزل والتولية ، ورجحنا عزل الخليفة لقتيبة بعد طول نظر ، وهذا خلاف الشائع في المصادر والمراجع الحديثة . أما المسألة الثانية وهي تهمة الخلع التي أطلقت هي الأخرى ضد قتيبة مبرراً لقتله فهو ما سنستعرضه في السطور التالية بالمناقشة والتحليل .

خطبة قتيبة وقصة الخلع

يورد الطبري رواية منسوبة لغير واحد من الرواة فيهم أبو مخنف ، وفيها :

«أن قتيبة لما هم بالخلع استشار أخوته ، فقال له عبدالرحمن : اقطع بعثا فوجه فيه كل من تخافه ، ووجه قوما إلى مرو ، وسر حتى تنزل سمرقند ، ثم قل لمن معك : من أحب المقام فله المواساة ، ومن أراد الانصراف فغير مستكره ولا متبوع بسوء ، فلا يقيم معك إلا مناصح» . وقال له عبدالله : «اخلعه مكانك ، وادع الناس إلى خلعه . فليس يختلف عليك رجلان» . فأخذ برأي عبدالله ، فخلع سليمان ، ودعا الناس إلى خلعه ، فقال :

وقبل أن نورد الخطبة نحب لفت الانتباه إلى أن مفردة الخلع وردت في الرواية السابقة أربع مرات . وفي الرواية يبرز أيضاً بوضوح قلق قتيبة مما سيقرر الخليفة بشأنه ، وقد شارك الأخوان في هذا القلق ، لكنهما اختلفا في كيفية مواجهة الموقف كما مر بنا . أما نص الخطبة ، كما يوردها الطبري ، فهو كما يلي :

«إني قد جمعتكم من عين التمر وفيض البحر ، فضممت الأخ إلى أخيه ، والولد إلى أبيه ، فقسمت بينكم فيئكم ، وأجريت عليكم أعطياتكم غير مكدرة ولا مؤخرة ، وقد جربتم الولاة قبلي ، أتاكم أمية فكتب إلى أمير المؤمنين : إن خراج خراسان لا يقوم بمطبخي ، ثم جاءكم أبو سعيد فدوم بكم ثلاث سنين لا

تدرون أفي طاعة أنتم أم في معصية! لم يجب فيئا ، ولم ينكأ عدوا ، ثم جاءكم بنوه بعده ، يزيد ، فَحْلُ تبارى إليه النساء ، إنما خليفتكم يزيد بن ثروان هبنقة القيسي»[49] .

هذه هي الخطبة المنسوبة لقتيبة في رجال القبائل المؤلفة لجيشه ، وليس فيها كما نرى خلع للخليفة ، بل مقارنة بينه وبين الولاة قبله . وفي رواية ابن أعثم لهذه الخطبة هناك زيادة مهمة وهي «**وإنما خليفتكم يزيد بن ثروان هبنقة القيسي ، بل هو أحمق منه ، وأقل عقلاً من باقل**[50] **، وقد رأيتم عدلي فيكم وإنصافي إياكم ، فهاتوا ما عندكم**» . والعبارة الأخيرة هي أهم ما في هذه الزيادة لأنها تشرح بوضوح أن قتيبة لم يخلع ، وإنما قصد تذكير جيشه بفضائله تجاهه ، وهو ما يعني أن قتيبة إنما أراد معرفة مواقف الجند ، مؤملا الحصول على دعم منهم لإقناع الخليفة بأنه الوالي المجمع عليه ليبقيه والياً على خراسان ، فهذا هو الملاذ الوحيد مما ينتظره من عقاب . وقد يكون في هذا الموقف محاولة لاستعراض القوة بتعبيرات عصرنا ، لو أن القبائل دعمته ، وأن مثل هذا الدعم يقترب من كونه تهديداً بالتمرد إن لم يثبته في ولايته ، كما لا يمكن استبعاد ورود مثل هذه الفكرة على تفكير قتيبة ، لكن خطبته أبانت أنه لم يعلن الخلع الذي أشيع عنه ، كما أبانت أنه يعتمد في معالجة علاقته بسليمان على موقف القبائل منه ، وأن هذا الموقف هو الحاسم أيا كان القرار الذي يتخذه ، أي أن فكرة الذهاب إلى سمرقند والتحصن بها ، كما رأى أخوه ، غير قابلة للتنفيذ أيضاً إن كانت القبائل أو بعضها لن تدعم تلك الفكرة . وحول إشارة قتيبة إلى أن خليفتهم هو يزيد بن ثروان ، المضروب به المثل في الحمق[51] ، نقول إن هذه قد تصور ما يقتنع به قتيبة في الخليفة سليمان إن صحت نسبتها إليه ، لكنه اقتناع يفيد الإقرار بالخلافة لا بالخلع . ومن الناحية الشكلية نرى أن خطبة يمهد فيها لخلع خليفة تتكون من بضعة عبارات هي أحرى أن يشك بها ، فالخطبة في اللغة إنما تستحق هذا النعت لقولها مطولة في جمهرة من الناس ، لكن مفهوم الخطبة يكتمل إن ألحقنا النص السابق القصير بما جاء بعده من حديث لقتيبة ، بعدما روي أن أحدا لم يجبه إلى خلع الخليفة ، والواقع أن أحداً لم يجبه إلى ما طلب من مؤزارة ليبقى والياً ،

فغضب وأخذ يسب القبائل واحدة واحدة :

«لا أعز اللّه من نصرتم ، والله لو اجتمعتم على عنز ما كسرتم قرنها . يا أهل السافلة . ولا أقول أهل العالية . يا أوباش الصدقة ، جمعتكم كما تجمع إبل الصدقة من كل أوب ، يا معشر بكر بن وائل ، يا أهل النفج والكذب والبخل ، بأي يوميكم تفخرون؟ بيوم حربكم أو بيوم سلمكم! فوالله لأنا أعز منكم . يا أصحاب مسيلمة ، يا بني ذميم ، ولا أقول تميم . يا أهل الخور والقصف والغدر . كنتم تسمون الغدر في الجاهلية كيسان . يا أصحاب سجاح ، يا معشر عبدالقيس القساة ، تبدلتم بأبْر النخل أعنة الخيل . يا معشر الأزد ، تبدلتم بقلوس السفن أعنة الحصن ، إن هذا لبدعة في الإسلام! والأعراب ، وما الأعراب! لعنة الله على الأعراب! يا كناسة البقر والحمر في جزيرة ابن كاوان ، حتى إذ جمعتكم كما تجمع قزع الخريف قلتم كيت وكيت! أما واللّه إني لابن أبيه! وأخو أخيه . أما والله لأعصبنكم عصب السلمة . إن حول الصليان الزمزمة . يا أهل خراسان ، هل تدرون من وليكم؟ وليكم يزيد بن ثروان . كأني بأمير مزجاء ، وحكم قد جاءكم فغلبكم على فيئكم وأظلالكم . إن هنا نارا ، ارموها أرم معكم ، ارموا غرضكم الأقصى . قد استخلف عليكم أبو نافع ذو الودعات . إن الشام أب مبرور ، وإن العراق أب مكفور ، حتى متى يتبطح أهل الشام بأفنيتكم وظلال دياركم! يا أهل خراسان ، انسبوني تجدوني عراقي الأم ، عراقي الأب ، عراقي الهوى والرأي والدين ، وقد أصبحتم اليوم فيما ترون من الأمن والعافية . قد فتح الله لكم البلاد وآمن من سبلكم ، فالظعينة تخرج من مرو إلى بلخ بغير جواز ، فاحمدوا الله على النعمة ، وسلوه الشكر والمزيد»[52] .

وقد أورد الجاحظ في البيان والتبين مجموع الكلام الوارد هذا عند الطبري في صورة خطب ثلاث مستقل بعضها عن بعض ، وليس ثمة فرق في الجوهر بين ما أورده الجاحظ وما أورده الطبري ، لكن التمهيد للخطبتين التاليتين بعبارة «**وخطب مرة أخرى**» تفيد وقوع الخطب في فترات زمنية متباعدة ، وهو ما يتعارض مع جوهر الخطب الثلاث الوارد عند الطبري في هيئة خطبة واحدة .

وقد قدم الجاحظ الخطبة الأولى بالعبارة التالية عن قتيبة «**قام بخراسان خطيبا حين خلع فقال**»[53] (الخطب)

الغريب أن موقف قتيبة من ولاية عهد سليمان ، باستثناء إشارة في بيت من الشعر عند ابن أعثم[54] ، يهمل تماما في معرض الحديث عن تطورات الأوضاع في معسكر قتيبة ، ويستخدم بدلاً من ذلك تهمة خلع قتيبة لسليمان من الخلافة في خطبة مشهورة في معسكره ، وكأن قتيبة حتى ذلك الحين كان معترفاً بشرعية سليمان ، على حين أن قتيبة لم يعد من الناحية الشرعية ملزما بطاعة من خلع قبلا عن ولاية العهد ، وأنه ـ والحال هذه ـ يعد معزولا تلقائياً عن ولايته ، إلا بتجديده الطاعة للخليفة ، وقد فعل قتيبة ذلك كما مر بنا ، وبقي قبول الخليفة ذلك منه ، وهو أمر لم تناقشه الروايات مطلقاً لكننا نستطيع أن نقرر هذا الوضع تحديدا ، أي شرعية ولاية قتيبة لخراسان بعد صعود سليمان سدة الخلافة ، كان هو لسان حال معسكر قتيبة كله . والروايات ـ وإن لم تذكر هذا الأمر صراحة ـ تدور في جل أخبارها حول معالجاته من قبل قتيبة والقبائل المشكلة لمعسكره ، ويكفي ما شاع من شعر دليلاً على ذلك[55] . ولا بد من إبراز هذه المسألة هنا لبيان أن تهمة خلع قتيبة لسليمان بعد أن صار خليفة لم تكن سوى الدعاية التي أشاعها قاتلوه لتبرير فعلتهم كما سنرى في السطور التالية .

وما دمنا قد رجحنا صحة العزل مسنودين بنص الكتاب المثبت عند ابن أعثم ، وأنه الموقف الوحيد للخليفة من قتيبة ، فإن ما سيثبت لنا أيضاً في السطور التالية هو أن هذه الخطبة وما تلاها من أحداث قد وقعت في غياب أي موقف رسمي معلن من الخلافة حول قتيبة وولايته .

وهذه الفكرة مهمة جداً لمعرفة المواقف القبلية في الميدان بفرغانه وفهمها ، وبناء عليها يسلمنا إعادة ترتيب الأحداث إلى ترجيح فكرة أن قتيبة ألقى خطبته بعد أن أرسل كتاب التهنئة إلى سليمان ، ليتسنى له معرفة المواقف قبل أن يأتي رد الخليفة ، ليحسن اتخاذ قراره في ضوء ذلك . ولو كان أمر العزل قد فشا في معسكره لرأينا مواقف القبائل تتشكل بناء على ذلك ، ولجرت الأحداث على

نحـو آخـر ، لا سيمـا وقـد سبقت الإشاعـات عن رغبـة الخليفـة في زيادة العطاء والإذن بالقفول لمن أراد من العسكر ، قد أكرهوا على التوجه إلى فرغانة أولاً ، ومنعوا من العودة ثانياً ، واستقوى قتيبة عليهم بالأعاجم ثالثاً . وكانت هذه الأمور هي ما نقم معظم الجند على قتيبة بسببها كما ذكرت رواية البلاذري السالفة وابن أعثم[56] .

والملاحظة البارزة التي نود تأكيدها والمستندة إلى النص الذي بين أيدينا هي أن قتيبة حمل على القبائل العربية المؤلفة لجيشه ، وخاطب أهل خراسان وهم الموالي أو الأعاجم بلهجة أخرى ، لأنهم كانوا سنده وقوته ، يؤيد ذلك عبارة يوردها اليعقوبي على أنها جزء من الخطبة وهي «والله لأنا بمن معي من العجم أعز منكم»[57] يقصد باقي القبائل العربية . والمهم هنا أن لا دليل لفظيا في الخطبة يفيد الخلع ، وإنما طلب قتيبة ضمناً التأييد لبقائه واليا على خراسان ، وهنا تظهر التناقضات الكامنة في جيشه ، فلا يجد قتيبة حماساً لمطلبه ، لا سيما والقبائل المكونة لجيشه تعلم ما سلف من قتيبة ضد سليمان . وكان تقاعس القبائل عن نصرته في هذه اللحظة الحرجة هو المبرر المفهوم ليتحول قتيبة إلى السب والشتم على النحو الذي مر بنا . كما أن خلو الخطبة ورد الفعل من صدى لعزل قتيبة يؤيد بقوة ما ذهبنا إليه من غياب الموقف الرسمي للخلافة حتى تلك اللحظة في ميدان الحدث ، فرغانة .

وهناك رواية يتيمة تقلب الصورة الغالبة عن خلع قتيبة لسليمان رأساً على عقب ، وهي ترد في سياق محاولات يزيد بن المهلب تشويه صورة وكيع التميمي ، قاتل قتيبة ، وزعيم الانقلاب ضده والمتغلب على ولاية خراسان ، والآمل في دعم الخليفة له بتولية رسمية . ولرغبة يزيد الجامحة في ولاية خراسان ، فقد خشي أن يولي الخليفة وكيعا بدلاً منه مكافأة له على قتله قتيبة . ولثني الخليفة عن إصدار مرسوم من الخلافة بتثبيت وكيع رسمياً في ولاية خراسان استعان بعبدالله بن الأهتم التميمي ، أحد الفارين من معسكر قتيبة بعد علمه بخلافة سليمان ، فأخذ قتيبة ، انتقاماً منه ، مجموعة من أهله فقتلهم

وسجنهم[58] . وتذكر رواية أخرى أنه فر إلى الشام وتخفى هناك بسبب محاولته الدس على قتيبة عند الحجاج ، وعلم قتيبة بذلك من الحجاج ، فلما لم يجد قتيبة ابن الأهتم أخذ بني عمه وبنيه فقتل تسعة منهم ، وأوغر بذلك صدر ابن الأهتم ، فلما مات الوليد وصعد سليمان ظهر ابن الاهتم وهنأه بالخلافة وتحدث إلى سليمان بكل قبيح عن قتيبة والحجاج[59] . وقصة قتيبة مع ابن الاهتم تلقي ضوءا على طبيعة معسكر قتيبة ، وكيف أن الخصومات الكامنة ستجد لها الآن ، وبعد تغير موازين القوى في مركز الخلافة ، متنفساً . وقد قام ابن الأهتم هذا بدور في الأحداث كبير ، فعوضاً من إطلاع الخليفة على طبيعة معسكر قتيبة ، وزيادته في إيغار صدر الخليفة عليه ، قام أيضاً بتنفيذ ما طلب منه يزيد بن المهلب ، وهي أن يعيب وكيعا ، قاتل قتيبة ، عند الخليفة كي لا يوليه خراسان رسمياً . وقد وعده يزيد بمئة ألف درهم مكافأة إن فعل ذلك .

في سياق هذه الرواية المنسوبة لأبي عبيدة معمر بن المثنى ، ترد عبارة «**وكانت قيس تزعم أن قتيبة لم يخلع**»[60] . ولا بد من منح هذه العبارة ، علي يتمها أو بسبب يتمها ، قدراً من الاهتمام لدلالتها المهمة ؛ ففيها أولاً إشارة إلى الانقلاب الحاصل في موازين القوى ، وإلى أن قيساً الآن قد خرجت من مفاصل السلطة الأموية ، وأفسحت المجال لليمانية ممثلة بشخص الأبرز فيهم يزيد بن المهلب وهو التناوب المألوف والدموي أحياناً مع الأسف . والإشارة إلى أن قيساً تزعم ، يعني أن الخلع تهمة ألصقها خصوم القيسية بقتيبة تبريراً لإزاحته ، ويبدو أن قيساً أخذت تدافع عن مواقعها ومواقفها في خلافة سليمان ، وكأن خلع قتيبة المزعوم لسليمان قد فهم أنه موقف لقيس كلها ، كما يبدو أن ركود غبار مقتلة قتيبة أفسح المجال لصوت آخر يعلو ، وهو الصوت الذي ينكر تهمة الخلع الملصقة بقتيبة ، وقد كان متواصلاً وضاغطاً لدرجة أن الخليفة سليمان يرضخ ويأمر يزيد ابن المهلب واليه إلى العراق أن يتحقق من الأمر قائلاً : «**إن أقامت قيس البينة أن قتيبة لم يخلع فينزع يداً من طاعة ، أن يقيد وكيعا به**»[61] ، أي أن الخليفة سليمان ، وفي محاولة منه لاسترضاء قيس قد أراد إظهار صورة أخرى تجاه قتيبة ، فأوكل إلى يزيد مهمة التحقق من أقوال قيس في براءة قتيبة من الخلع ،

وقد أدت تبدلات المصالح إلى الاهتمام بهذه الفكرة ؛ لأن من مصلحة يزيد الآن ـ وقد ذهب خصمه قتيبة ـ أن يثبت هو الآخر براءة قتيبة من الخلع ليُتَّهم وكيع بقتله ظلما فتسقط عنه ولاية خراسان لتصفو له . وهناك شاهد أساسي وقوي على أن تهمة الخلع كانت باطلة وأنها ألصقت بقتيبة إلصاقاً ، هذا الشاهد هو عبدالله بن الأهتم نفسه . فبحسب رواية معمر بن المثنى فإن يزيد بن المهلب لم يف للرجل بمئة الألف درهم الذي وعد ، فأحب ابن الأهتم أن يصعب مهمة يزيد في تبرئة قتيبة من الخلع ، وبخاصة أن يزيد حاز ولاية خراسان ، وأرسل إليها ابنه مخلداً ، فذهب ابن الاهتم إلى رجل حبسه مخلد ، وأراد منه إخراج كتب زعم أن رجلين من أعوان قتيبة هما القعقاع بن خليد العبسي وخريم بن عمر المري كتباها إلى قتيبة في خلع سليمان[62] ، لكن الرجل أنكر الأمر ، ورأى في الإقرار بهذا الأمر خديعة عن دينه ، فما كان من ابن الأهتم إلا أن زور كتباً على لسان من ذكر لكنه كُشف ، وهذا يعني أن ادعاء وجود كتب بهذا المعنى من بعض رجال قتيبة غير صحيح .

والمهم هو أن إخفاق ابن الأهتم في تلفيق فكرة خلع قتيبة لسليمان نكاية بيزيد بن المهلب تنفي عن قتيبة تهمة الخلع التي ألصقت به مبررا لقتله . وبإسقاط تهمة الخلع تستقيم الأحداث ثانية . لقد كان قتيبة يعي ضعف موقفه بسبب خلعه سليمان من ولاية العهد ، كما كان يعي أيضاً أثر موقعه هذا على معسكره . ونستطيع لذلك أن نتصور أن ما كان يهمه في المقام الأول ليس زيادة سخط الخليفة عليه بالخلع ، بل الحصول على دعم القبائل في معسكره لاستمرار ولايته ؛ لأنها الملاذ الوحيد مما ينتظره من مصير . أما القبائل التي تعي موقف سليمان من قتيبة فقد قدرت أن نجم قتيبة بصعود سليمان خليفة قد أفل ، لكنها اختلفت في الموقف من قتيبة وسليمان كما سنبين . وبترجيح براءة قتيبة من تهمة الخلع للخليفة نكون قد حررنا المسألة الثانية ، وهي خلاف الشائع في معظم المصادر والمراجع الحديثة .

مقتل قتيبة

لم يحصل قتيبة على النصرة التي أملها في معسكره ؛ إذ آثرت القبائل أن لا تغضب مركز الخلافة بالانضمام إلى قتيبة ودعم ولايته ، ولأن هذا سيفهم بالضرورة على أنه دعم لمواقف قتيبة من سليمان السابقة ، وهو دعم ـ في حالة حصوله ـ يقترب من كونه تمرداً على الخلافة ، وهو تمرد تُخْشى عواقبه بعدما جرى لتمرد ابن الأشعث ضد الحجاج قبل سنوات من هذا التاريخ . وهذا أثر بارز من آثار سلطة المركز على الأطراف . ونستطيع تصور عمق خيبة قتيبة في جيشه الذي قاده عشر سنوات ، ثم رأى منه تقاعساً في هذه اللحظة التاريخية الحرجة من دعمه لانقاذه من مصير مؤلم . لقد كان هذا التقاعس كما أشرنا سلفاً هو المبرر الوحيد المفهوم لينتقل قتيبة مرة واحدة إلى شتم القبائل على النحو الذي مر بنا ، وهو بهجومه ذاك كان يطلق صرخة يأس أخيرة ، وإلا عد أخرق إن كان يستعدي رجال جيشه بهذه البساطة ، لكن كيف يكون أخرق من قاد هذا الجيش بنجاح لافت طوال عشر سنين ، واتصف بالشجاعة والجود ودماثة الأخلاق وحسن الرأي[63]؟ ، وبالحزم والنبل والفصاحة[64] ، وكيف يكون أخرق من رآه أهل تلك الجهات المفتوحة قطبا مستجاب الدعوة ، وقامت له في قلوبهم هيبة قل أن تدانى[65]؟ ، بل إن قبره كما يذكر النرشحي (ت 348 هـ – 959م) صاحب تاريخ بخارى ، مشهور مزار[66]؟ . لكنه يقين القائد بمواقف جيشه ، ويقين القائد من ثقافة الانتقام السائدة . وهناك رواية يوردها ابن أعثم ، تعزز ما أورده البلاذري حول الوضع الذي تلا الخطبة التي شتم فيها قتيبة القبائل ، وهي أن القبائل ـ وإن كانت على وعي بما بين قائدها وبين الخليفة سليمان ـ فإن الموقف من قتيبة قد حكمه الإيغال بالجند إلى فرغانة ومنعهم من العودة ، والاستقواء عليهم بالأعاجم ومنعهم من العطاء . ويبدو أن رغبة العودة إلى مرو كانت في مقدم المطالب الملحة للقبائل التي أرادت إذناً بالعودة ولا دخل لها بالباقي «**وهو أعلم بعد ذلك إن شاء فليخلع سليمان بن عبدالملك ، وإن شاء فليسمع ويطع ، فإن هو لم يأذن لنا فلا يلومن إلا نفسه**»[67] ، ومع ذلك فإن تفاصيل مقتله تكشف مواقف للقبائل متباينة من أمر قتيبة وصلته بمركز الخلافة .

ولمعرفة ظروف مقتله لابد من استقصاء الاتجاهات القبلية لجيشه وفهمها في ضوء السياسات العامة المتبعة من خليفة لآخر ، حيث كانت هذه السياسات ذات أثر في صياغة العلاقات القبلية داخل الخلافة كلها ، وستقوم هذه السياسة بدور في تحديد مصير قتيبة بعد قليل .

ففي ما يتعلق بالقبائل المؤلفة لجيشه نود إلقاء نظرة على الجدول التالي وفيه أسماء القبائل المؤلفة لجيش قتيبة وأعدادها كما أوردها الطبري

القبيلـــة	عدد أفرادها	رئيس القبيلة
الأزد	عشرة آلاف	عبدالله بن حوذان
تميم	عشرة آلاف	ضرار بن حصين الضبي
أهل العالية من أهل البصرة	تسعة آلاف	غير مذكور
بكر بن وائل	سبعة آلاف	الحضين بن المنذر
الموالي	سبعة آلاف	حيان ويكني بالنبطي
عبدالقيس	أربعة آلاف	عبدالله بن علوان عوذي

هذا الجدول يبين أن قبائل تميم المضرية والأزد اليمنية هي أكثر القبائل عدداً في جيش قتيبة ، يتلوها أهل البصرة ، وهم أخلاط قبائل . أما أقل القبائل عدداً فكانت عبدالقيس من ربيعة ، ومن جهة أخرى فإنه باستثناء قبائل الأزد اليمنية ، فإن باقي القبائل مضرية ، من قيس وتميم بعض ربيعة ، ويتبعهم الموالي ، كما أن القبائل من جهة ثالثة تنحدر من العراق ومحيط العراق . وقد اتكأ قتيبة بقوة في الخطبة المروية سلفاً على هذه الحقيقة بعد أن عنف القبائل ، وأشار إلى أنه عراقي الأم والأب والمولد والهوى والرأي ؛ أي أنه أراد أن يجعل الوقوف معه جزءاً من الواجب القبلي لأهل العراق ، كما حاول استثارة هممهم لمقاومة أهل الشام المستبيحين للعراق وديارة كما قال . ولعل أهم ملاحظة لابد من تسجيلها هنا هي أن الرواية التي أحصت القبائل في جيش قتيبة لم تذكر

قبيلة باهلة وهي القبيلة القيسية التي ينتمي إليها قتيبة بن مسلم الباهلي ، وهذا يعني ببساطة أن قتيبة طوال سنوات ولايته وحربه لم يكن يعتمد على قبيلة قوية تعزز قيادته كما هو المألوف عموماً ، لكنه كان يعتمد على سند آخر قوي كما ذكرنا هو الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق والمشرق ، ثم اعتمد على سند آخر أقوى هو الخليفة الوليد بن عبدالملك ، والذي أدرك حرج موقف قتيبة فعززه بكتاب أسلفنا ذكره . لكن الروايات التي أسلفنا الإشارة إليها تذكر أنه كان يتقوى بالعجم ، أي الموالي . ومن الأكيد أنه قد جعلهم عصبته الأقرب إليه ، كما يرد ذكر الأفراد من قبيلة باهلة هنا وهناك ضمن المجموعة التي وردت في الإحصاء بلا زعيم ، وهم أخلاط من قبائل متعددة غير ذات وزن بين القبائل الكبيرة ، عرفوا بأهل البصرة . ولا شك أن أفراداً من قبيلة باهلة قد لازموا قتيبة وبخاصة أقرباؤه وإخوته ، ومكنهم من مناصب الولايات ورئاسة الشرطة . لكن الأمر كان يجاوز التمثيل العددي هنا إلى إلى صورة القبيلة إجمالاً عند العرب ؛ فقتيبة بن مسلم ينتمي إلى قبيلة يستنكف العرب من الانتساب إليها ، وتكثر حولها النوادر والنكات التي تظهر صورتها الدونية عند العرب[68] ، وقد كان قتيبة كما ذكر صاحب ثمار القلوب ، الذي عانى من صورة قبيلته عند العرب ، أول باهلي يرفع عن القبيلة ما تداولته العرب عنها من لؤم في الجاهلية والإسلام ، ويمنحها شرفاً كبيراً عبر انتصاراته المتكررة[69] ، ومع ذلك فإن شرف هذه الانتصارات لم يشفع لقتيبة عند أحد ، ولا تمكنت القبيلة من التهديد لو مس قتيبة بسوء ، وقد كانت من الضعف بحيث لا تقوى على الدفاع عن رجل في مثل مكانة قتيبة .

ولا شك أن القبائل التي سبق ذكرها والمفعمة بثقافة العدد والقوة تدرك كل هذه الحقائق ، وتدرك أن قتيبة بارتقاء سليمان بن عبدالملك سدة الخلافة قد فقد أركان قوته ، فلا خليفة ولا قبيلة ولا حجاج .

ومع ذلك فلا بد من الحذر في رصد ردة الفعل المبنية على إقذاع قتيبة في حق القبائل كما صورت الخطبة المنسوبة إليه ، بل سنرى أن الشتم الذي كاله قتيبة للقبائل بألفاظ الرواية أو غيرها قد مهد السبيل لحبك مؤامرة التخلص منه ،

لكن ليس من كل القبائل كما سنرى .

يذكر الطبري أن القبائل غضبت من شتم قتيبة وكرهت خلع سليمان ، فأجمعت على خلاف قتيبة وخلعه[70] ، وأن الأزد هم أول من تكلم في خلاف قتيبة ، لرفضهم فكرة خلع سليمان وللشتم الذي لحقهم . وقد حسمنا الموقف من مسألة الخلع في السطور السابقة ، ويجب التعامل مع المفردة فيما سيأتي بوصفها للدعاية الواسعة التي أعقبت مقتل قتيبة . أما دلالة أن تكون الأزد هي أول من يتكلم في خلاف قتيبة وخلعه عن الولاية ، والبحث عن وال آخر بدل قتيبة ، فلا نحتاج كبير جهد لندرك أن الأزد قد رأت في صعود سليمان بن عبدالملك إلى الخلافة عودة لنفوذ اليمنية ، وهو النفوذ الذي أقصي أيام الخليفة الوليد بن عبدالملك بن مروان ، كما يبدو أن قتيبة قد أهمل الأزد في جيشه وجعلهم في آخر من يمنح ويعطي[71] ، أضف إلى ذلك أن يزيد بن المهلب ، كبير اليمنية ، في بلاط الخليفة سليمان ينتمي إلى قبائل الأزد اليمنية ، ولا شك أن هذه القبائل قد شهدت العزل المهين الذي لقيه كبيرها قبل عشر سنوات على يد قتيبة حين عين بدلا منه على خراسان من قبل الحجاج بن يوسف الثقفي ، ثم سجن آل المهلب وأرسلهم إلى الحجاج ، أي أن قبائل الأزد بتحركها ضد قتيبة إنما تتجاوب مع خط السياسة الجديد في دمشق تمليها بداهة الأمور المنبثقة عن أعراف القبيلة ، سيدة الموقف الآن . ومع ذلك فإن موازين القوى في معسكر قتيبة لم تكن في صالح الأزد فهم القبيلة اليمنية الوحيد ، وتعدلهم في العدد تميم وحدها ، ناهيك عن الموالي وبكر بن وائل[72] ، وسيظهر هذا الأمر جليا في المشاورات التي بدأتها الأزد لإسقاط قتيبة .

ذهبت الأزد إلى حصين بن المنذر زعيم بكر بن وائل ، من ربيعة ، وتحدثت في أن الدعوة إلى خلع الخليفة فيه فساد الدين والدنيا ، (نود التنبيه هنا إلى أن مفردة الخلع هنا ليست سوى انعكاس للدعاية الواسعة ضد قتيبة وجدت طريقها للتدوين) ، وأن قتيبة لم يكتف بذلك بل صغرهم وشتمهم ، وسألوه المشورة في ذلك[73] . وهنا تبرز المعايير البدهية التي تتعامل بها القبائل العربية ،

فيشير زعيم بكر مباشرة إلى أن مضر بخراسان كثيرة وتميم أكثرها[74] ، أي أن تميم داخل معسكر مضر تشكل الأغلبية القيسية «**وهم فرسان خراسان ، ولا يرضون أن يصير الأمر في غير مضر**»[75] . ولا يستطيع الأزد عمل شيء إزاء هذا الواقع في معسكر قتيبة حتى مع تغير هوى الخلافة لصالح اليمنية ، ووجود كبيرهم مكرما في مجلس الخليفة ، وقد حاولوا أول الأمر تجاوز هذا الواقع وتنصيب زعيم الأزد عبدالله بن حوذان «**رئيساً فأبى ، وتدافعوها ، فرجعوا إلى حضين ، فقالوا : قد تدافعنا الرياسة ، فنحن نوليك أمرنا ، وربيعة لا تخالفه ، قال لا ناقة لي في هذا ولا جمل . قالوا ما ترى؟ قال إن جعلتم هذه الرياسة في تميم تَمّ أمركم ، قالوا فمن ترى من تميم؟ قال ما أرى غير وكيع ، فقال حيان مولى بني شيبان : إن أحدا لا يتقلد هذا الأمر فيصلى بحرّه ، ويبدل دمه ويتعرض للقتل ، فإن قدم أمير أخذه بما جنى وكان المهنأ لغيره ، إلا هذا الأعرابي وكيع ، فإنه مقدام لا يبالي ما ركب ، ولا ينظر في عاقبة ، ولا عشيرة كثيرة تطيعه ، وهو موتور يطلب قتيبة برياسته التي صرفها عنه وصيرها لضرار بن حصين بن زيد الفوارس الضبي**»[76] .

يؤكد هذا النص ثانية ما ذهبنا إليه من غياب أي موقف رسمي من الخلافة ، وتأتي الإشارة إلى وكيع بوصفه أعرابياً مقداماً لا يبالي بالنتائج ، ولا ينظر في عاقبة لتعزز التخوف من الإقدام على أمر لا تحمد عقباه ، وهو ما جعل القبائل النافذة لا تتفق على فعل جماعي واضح ضد قتيبة . ثم إن وكيعا ، كما أشارت الرواية ، صاحب ثأر شخصي عند قتيبة بسبب صرف رياسة تميم عنه إلى غيره ، وهنا لابد من الإشارة إلى أن وكيعاً كان يعي موقع تميم في معسكر قتيبة ، وأن قبيلة أخرى غير تميم لن تجرؤ على طلب الرياسة العامة بوجود تميم ، وهو ما أشار إليه زعيم بكر بن وائل كما أسلفنا . ومع ذلك فلم يكن وكيع ينتظر سنداً من كل تميم بسبب الخصومة مع رئيسها ثبته قتيبة بدلا عنه ، ناهيك عن القبائل الأخرى ، بل اعتمد فقط على عشيرته الأقرب إليه كما جاء في الرواية ، وسنرى أن الطموح الذي ظهر فجأة عند رئيس الموالي هو الذي سهل مهمة وكيع في التخلص من قتيبة ، لا سيما وقد مر بنا أن قتيبة يعتمد عليهم .

وعلى الرغم من الإشارة الأولى إلى غضب القبائل من شتم قتيبة ، فإن أثر ذلك في تدبير الانقلاب على قتيبة سيختفي ، وسيبرز وكيع ومن ناصره بالإضافة إلى الموالي .

وما يمكن تصوره باطمئنان هو أن قبول وكيع تزعم الانقلاب ضد قتيبة سيدفع الطامحين وأصحاب الخصومات التي تراكمت في معسكر قتيبة في السنين الخوالي للالتحاق بوكيع ومبايعته ، ومع ذلك فقد كان الأمر يجري في السر مما يشي بأن وكيعا ، وبسبب غياب الإجماع عليه ، لم يكن بالقوة التي تكفي لإظهار نواياه ، وهو ما يدعم موقف قتيبة ولو إلى حين . ويكفي أن نشير إلى أن زعيم تميم ضرار بن حصين هو الذي أبلغ قتيبة باختلاف الناس إلى وكيع ومبايعته سرا . ونرى أن لا نلقي بالا للرواية التي أوردها صاحب «العيون والحدائق» وزعمت أن قرابة خمسين ألفا بايعت وكيعا لخلافة قتيبة[77] ، وبخاصة وأن قتيبة بن مسلم إنما تأكد من سرية مبايعات الناس لوكيع عن طريق الحيلة ، حين أرسل إليه من يبايعه سرا بعد أن بلغه الأمر ، وعندها تيقن أن ما بلغه من اختلاف الناس إلى وكيع للمبايعة لم يكن كذبا .

وكان حيان النبطي زعيم الموالي البالغ عددهم سبعة آلاف أبرز أعوان قتيبة في مواقع كثيرة ، كما كان الموالي عدته وقوته طوال الوقت . لكن حيان النبطي انتهز فرصة الخلاف القائم وأراد القيام بمغامرة والخروج منها بنصيب دنيوي وافر ، فطرح على وكيع أن يجعل له جانب نهر بلخ وخراجه مادام حيا ومادام وكيع واليا[78] شرطا لمؤازرته فيما نواه ، فوافق وكيع على الشرط ، ودفع حيان الموالي للمبايعة قائلاً لهم : «**هؤلاء يقاتلون على غير دين ، فدعوهم يقتل بعضهم بعضا**»[79] . وقد ذهب شعبان في تفسيره لانقلاب موقف الموالي ضد قتيبة إلى فشله في دمجهم مع الجيش العربي ، وإلى إهمال مصالحهم على الرغم من خدماتهم الجليلة لقتيبة[80] ، والواقع أن مسألة الإدماج ليست قراراً سياسياً فقط ، بل تحول اجتماعي يأخذ وقته وطرائقه ، وأن هذا الدمج لم يحصل حتى بين القبائل العربية نفسها في هذه الفترة تجديداً ، كما أن إهمال مصالح الموالي لم

تعوض الآن بالموقف الجديد ضد قتيبة ، بل نحن أمام اتفاق شخصي بين وكيع التميمي زعيم الانقلاب وحيان النبطي زعيم الأعاجم ، وهو اتفاق يحصل بموجبه حيان وحده على المنافع لا كل الأعاجم حسب الاتفاق المشار إليه . وقد تمكن حيان النبطي بسبب قابلياته وموقعه في جيش قتيبة من إقناع الموالي بالتحول عن قتيبة إلى وكيع ، مقدما سببا دينيا لذلك لا دنيويا كما مر . والخلاصة هي أن تحول ولاء الأعاجم عن قتيبة في هذه اللحظة التاريخية الحرجة هي الضربة القاضية التي قتلته ، إذ فقد بذلك آخر سند له .

علم قتيبة بأن حيان النبطي زعيم الموالي حول ولاءه إلى وكيع ، فأراد استدعاءه إليه ليقتله لكن جواسيس في حشم قتيبة أبلغوه بالأمر فلم يأت ، وادعى المرض ، ومثله اعتذر وكيع عن القدوم إلى قتيبة ، وهكذا أخذ وكيع وحيان النبطي يتأهبان لمواجهة لابد منها بعد انكشاف المستور .

ونظرة سريعة إلى معسكري المواجهة تكشف أن قتيبة كان في قلة من عشيرته وأعوانه ، وهم الذين لم يتجاوزوا الأحد عشر شخصا ، وهم كل الذين ذكرت الرواية أنهم قتلوا . لم يتمكن قتيبة من الاستنجاد بأحد ، فقد باغته خصومه في فسطاطه وقتلوه كما تقول إحدى الروايات فتكا[81] . أما الذين أراد الاستنجاد بهم بالاسم فكانوا من بني عامر ، إلا أنهم رغبوا عن نصرته لما سلف منه من جفاء ، فذهبت مناشدته لهم هباء[82] . وتشير المحاورة التي يوردها ابن الأثير أن حزازات كثيرة صنعها قتيبة عند هذه القبيلة وربما عند غيرها صعبت على كل القبائل نجدته ، فترك لمصيره مع وكيع الموتور . وقد زاد ابن خلدون (ت 808 هـ) على هذه الرواية فذكر أنه نودي في القبائل قبيلة قبيلة ولم يجبه أحد[83] . أما معسكر وكيع فكان أكبر بكثير من معسكر قتيبة ، فإلى جانب من بايعه سراً من خصوم قتيبة أعانه بنو عمه ، والموالي .

ولعل النص التالي الذي يورده ابن أعثم يلقي ضوءا على الساعات الحرجة التي سبقت مقتل قتيبة ، فقد صور ابن أعثم توجه وكيع إلى فسطاط قتيبة «**وجعل الناس ينادي بعضهم بعضا وهم يقولون : افزعوا إلى وكيع شيخ**

تميم ، قال : وأقبل الناس من كل أوب ، وأقبل وكيع حتى وقف بإزاء فسطاط قتيبة ، فصار بنو تميم والأزد مقابل الفسطاط ، وقبائل ربيعة من وراء السرادق ، وقتيبة من أهل بيته ، وأقبلت قبائل قيس لينصروا قتيبة فعلموا أنهم لا طاقة لهم بأهل العسكر»[84] ، لكنهم حاولوا على الأقل ولم يخذلوه كما أشار إلى ذلك فيلهوزن .

ولا ترد أخبار عن موقف تميم كلها . ويبدو أنهم لم يشتركوا بوصفهم قبيلة إلى جانب وكيع بسبب خصومة زعيم تميم الذي ثبته قتيبة في رياسة القبيلة بدلا من وكيع ، ومع ذلك فليس هناك أخبار أيضاً عن اشتراك تميم إلى جانب قتيبة في رياسة القبيلة بدلاً من وكيع ، ويبدو أن قبائل قيس المنضوية ضمن مصطلح أهل البصرة هي الوحيدة التي حاولت نجدة قتيبة ، فأدركت عدم قدرتها على ذلك ، لكنها ظلت تنافح فيما بعد ، وتصر على أن قتيبة لم يخلع كما مر بنا . كما لا ترد أخبار عن مواقف كل من عبد القيس وأهل البصرة (أهل العالية) مما قد يعني وقوفهم على الحياد . ونخلص إلى أن بعض تميم وكل الأزد وبكر بن وائل قد ناصرت وكيعا ضد قتيبة . وفيما يتعلق ببكر بن وائل فإن موقفهم غير واضح فيما عرف بوقعة وكيع . فهناك رواية الطبري التي تصور وكيعا يتساءل عن مصير رأس قتيبة فيخبر أن الأزد أخذته ، فيقسم لا يبرح مكانه حتى يؤتى بالرأس ، فيتدخل زعيم بكر بن وائل ويذهب إلى الأزد فيقول لهم : **«أحمقى أنتم! بايعناه وأعطيناه المقادة وعرض نفسه ، ثم تأخذون الرأس! أخرجوه لعنه الله من رأس»**[85] ، على حين تشير رواية ابن أعثم إلى أن رجلا من الأزد هو الذي ذهب إلى قومه واسترد منهم الرأس ، وقال لهم العبارة السالفة[86] . وهناك رواية أخرى عند ابن خياط تصور زعيم بكر بن وائل حضين بن المنذر جالساً مع أحدهم يوم مقتل قتيبة ، ومشيدا بمناقبه التي لا تتوافر عند غيره ، وهي رواية لا تتفق مع الأحداث وانخراط زعيم بكر بن وائل مع زعيم الأزد اليمنية منذ البداية في التحريض ضد قتيبة . ويبدو أنه قد حصل خلط في الأسماء وأن رواية ابن خياط تتحدث عن موقف زعيم تميم ، ضرار بن حصين الضبي ، وهو الموقف المنسجم مع الأحداث ، والقائم على اقتناع شخصي بأهمية دور قتيبة

وبحكم ما ترسخ بينهما من صلات[87] .

أما وكيع ، قاتل قتيبة ، فلم يهنأ بخراسان ، إلا أقل من عشرة أشهر ؛ إذ لعبت دسائس يزيد بن المهلب دورها عند الخليفة سليمان ، فلم يحصل وكيع على كتاب توليه لخراسان ، بل أزيح عنها وانتهى الأمر به إلى السجن والتعذيب[88] .

صلة الخليفة سليمان بقتل القائد قتيبة

استكمالا للموضوع لا بد من تحرير مسألة صلة الخليفة سليمان بقتل القائد قتيبة ، مع ما تلمح إليه بعض المراجع الحديثة تارة وتصرح أخرى بأن الخليفة سليمان قد نكل بأعظم الفاتحين وهم ابن نصير ومحمد بن القاسم الثقفي وقتيبة بن مسلم الباهلي[89] ، ويحاول آخرون تبرئة سليمان من هذا التنكيل أو البحث عن عذر لأفعاله[90] .

وسنترك الحديث عن ابن نصير ومحمد بن القاسم الثقفي ، لأنهما ليسا موضوع البحث ، ومع ذلك فلا بد من التشديد على أن الخليفة سليمان لم يأمر بالقتل لا لآل عقيل عشيرة الحجاج بن يوسف ، ولا لابن نصير ، ولا لابن القاسم الثقفي ، فالأخير مات في السجن ، وابن نصير مات موتة طبيعية بعد تعذيبه وتغريمه الأموال ، كما أننا نستطيع أن نقرر هنا أيضاً بعد الإحاطة بجميع الروايات ذات الصلة ، أن الخليفة سليمان لم يأمر بقتل قتيبة ولم يشترك في أي تدبير لقتله ، ويبدو أن الصفات التي ذكرها المسعودي (ت 345 هـ/ 956م) في «التنبيه والإشراف» تقترب من الواقع كثيراً ؛ فقد وصف الخليفة سليمان بأنه كان «**أكولا نهما ، نكاحاً ، لا يعجل إلى سفك الدماء ولا يستنكف عن مشورة النصحاء فيه حسد شديد**»[91] ، وأهم صفة نود التركيز عليها هنا أنه لا يعجل إلى سفك الدماء لنعزز بها ما ذهبنا إليه . وعلينا أن لا ننسى أن مستشاره وخليفته كان الخليفة الأموي الورع عمر بن عبدالعزيز الذي كان له رأي حسن في قتيبة ، ولا شك أن وجوده في مجلس سليمان لم يسهم إلا في تسكين غضب الخليفة سليمان على قتيبة وإن لم يصل إلى حد العفو عنه ، كما أنه لم يستطع إثناء الخليفة سليمان عن الاعتماد على يزيد بن المهلب .

ومع ذلك فإن القسوة في التعامل مع أولئك القادة قد عنى ـ في ظل الموازنات المعتمدة لذلك العصر ـ نكران جميلهم ، بحيث لم تشفع لهم فتوحاتهم العظيمة ، مما حل بهم من عذاب وسجن . أما ما يتعلق بقتيبة ولحسم صلة سليمان بمقتله نورد الآتي :

1 - تذكر المصادر التقليدية المعروفة شيئاً عن صلة سليمان بمقتل قتيبة ، كما ذكرت صلته بالتعذيب والتنكيل بمن ذكرنا .

2 - يورد البغدادي صاحب «خزانة الأدب» رواية تفيد أن خبر مقتل قتيبة والذي عرف بوقعة وكيع التميمي ، قد أتاه بينما كان في الحج ، فظن أن بني تميم قد قتلوه تمردا على الخلافة ، وقد همه هذا التمرد أكثر من مقتل قتيبة الذي رحب به بعدئذ ، فقام خطيبا بمسجد عرفات «**فذكر غدر بني تميم ووثوبهم على سلطانهم وإسراعهم إلى الفتن وأنهم أصحاب فتن وأصحاب غدر وقلة شكر ، فقام إليه الفرزدق فقال وفتح رداءه : يا أمير المؤمنين ، هذا ردائي رهن لك بوفاء بني تميم ، والذي بلغك كذب**»[92] . ثم جاءت بيعة وكيع لسليمان فافتخر الشاعر المشهور التميمي الأصل الفرزدق وأخذ يقول الشعر في مفاخر بني تميم لقتلهم قتيبة ، كما اشتهرت قصة الرداء رهناً .

هذه الرواية تبين بجلاء أن ليس للخليفة سليمان يد في قتل قتيبة ، ولا شك أن الخليفة سليمان كان يعرف أن تميماً هي أكثر مضر في جند قتيبة ، فخشي أن يكون في قتلها لقتيبة تكرار لما فعله ابن الأشعث ضد الحجاج والخلافة قبل عشر سنوات من الآن . ومع ذلك فإن مقتل قتيبة وبقاء إقليم خراسان وما وراء النهر مخلصاً للخلافة قد سر سليمان وأرضاه ، كما سره مقتل قتيبة و«**وقع من سليمان كلّ موقع**[93]» . وينقل الطبري وابن الأثير رواية فيها أيضاً ما يفيد تبرئته من دم قتيبة مباشرة ، وفيها أنه لما أتى سليمان رأس قتيبة مع رؤوس أهله كان عنده الهذيل بن زفر ، وهو مثل قتيبة من قيس عيلان[94] ، فسأله سليمان إن كان قد ساءه ما حل بقتيبة فأجاب الأخير بجواب عام «**لو**

ساءني لساء قوما كثيرا فقال سليمان ما أردت كل هذا»[95] ، وهذا يعني أن الخليفة سليمان لا يد له في مقتل قتيبة . لكن ابن الأثير (ت 630 هـ) ـ إقراراً منه برضى سليمان لما حل بقتيبة ـ يعلق على هذه العبارة بالقول «**وإنما قال سليمان هذا للهذيل ؛ لأنه هو وقتيبة من قيس عيلان**»[96] . والخلاصة أن الخليفة سليمان لم يأمر بقتل قتيبة مباشرة ولا اشترك في تدبير مقتله مع أحد ، ومع ذلك فقد سقط قتيبة ضحية صلته السيئة بسليمان .

الخلاصة

والخلاصة هي أن قتيبة بن مسلم الباهلي أحد الفاتحين العظام في خراسان وما وراء النهر ، ارتبط بالحجاج بن يوسف الثقفي حاكم المشرق كله للخليفة الوليد بن عبدالملك ، ثم شايعه بخلع سليمان بن عبدالملك عن ولاية العهد لصالح ولد الخليفة عبدالعزيز . ولم تنجح محاولة العزل فصار سليمان خليفة . وقد أراد قتيبة معالجة الموقف بينه وبين الخليفة الجديد بجملة إجراءات ؛ منها الإيغال بالجند إلى فرغانة ، ثم الكتابة إليه مُعزياً بأخيه ومهنئاً بالخلافة . ولم يعجل الخليفة في اتخاذ موقف حاسم من قتيبة فيما حاول عبر الإشاعات والأعوان إفراغ معسكره من الجند مستغلاً التناقضات التي تفجرت هناك ، ورغبة الجند في العودة من فرغانة التي سيقوا إليها بحيلة بعد عودتهم من حملة الفتح الأخيرة . وقد خطب قتيبة الجند محاولاً استمالتهم إلى صفه للحفاظ على منصبه لينجو من مصير مؤلم بسبب ما بدر منه ضد الخليفة الجديد ولم يفلح ، ثم استغلت القبائل المتربصة في معسكره الأزمة القائمة بينه و بين الخلافة فأغرت أحد الموتورين من قتيبة ، وهو وكيع بن الأسود التميمي ، فقام تحالف سري سرعان ما انكشف ضد قتيبة . وفي المواجهة العسكرية الخاطفة لقي قتيبة مصرعه بعد أن فقد آخر أركان قوته وهم الأعاجم . ولم يكن قتل قتيبة غيرة على سلطة الخلافة بخلعه طاعتها كما ذهبت إلى ذلك بعض الكتابات المعاصرة ، بل لتغير موازين القوى في مركز الخلافة ، ولتوافر حزازات شخصية راكمها قتيبة على نفسه في السنوات العشر المنصرمة ، بالإضافة إلى عدم منح الأعطيات للجند

والسماح بالقفول لمن أراد ، واتهامه بالغدر[97] ، والاستظهار على العرب بالأعاجم[98] ، الذين انقلبوا عليه في اللحظة الحاسمة ، كما كان للشتم الذي كاله قتيبة للقبائل دور في تشكيل جبهة معادية في معسكره .

وقد أمكن ـ من خلال فرز الروايات وتمحيصها ـ ترجيح أن الخليفة لم يقر قتيبة على ولايته كما ذهبت إلى ذلك معظم المصادر والمراجع الحديثة ، بل عزله عنها ، كما أمكن التحقق من أن قتيبة ، وخلافاً لمعظم المصادر والمراجع الحديثة ، لم يخلع الخليفة بل أراد تطييب العلاقة معه ، كما أظهر البحث انعدام الصلة بين الخليفة سليمان ومقتل قتيبة بن مسلم ، وإن كان الأخير قد سقط ضحية علاقته السيئة بالخليفة سليمان .

وتبقى خلاصة أخرى أليمة لابد من ذكرها وهي أن التفاني في خدمة الصالح العام الإسلامي ، وإحراز الانتصارات في الفتوح وإدخال الناس في الإسلام كما فعل قتيبة لم تكن كلها لتجدي شوافع عند أحد . لقد كانت المصالح المنتظرة من تغير اتجاهات السياسة في المركز هي سيدة الموقف ، ويبدو أن لا أحد في معسكر قتيبة كان يقيم وزنا مؤثرا لبطولاته وإنجازاته بل لخدماته المباشرة التي ذكرهم بها عبثا في خطبته ، وإلا لما حل به ما حل . وتؤكد قصائد الفخر التي أطلقها الفرزدق على سيادة ثقافة لا تحفل بفاتح عظيم كقتيبة ، بل ببطولات تميم في قتلها له . وحدها قصائد الرثاء ، وبحكم الغرض الشعري لهذه القصائد ، هي التي تلتفت لمصائر الأبطال وتخلد ذكراهم بنفث الحزن والأسف عليهم ، وإظهار المناقب والأفعال الحميدة لهم ، لكنها تأتي دائماً متأخرة ، فلا ترد ميتا ، ولا توقف سيفا ، ولم تؤسس لثقافة تقوم فيها الأعمال الجليلة للأفراد ذوائد عن أصحابها[99] .

الهوامش والمراجع

(1) انظر على سبيل المثال : شكري فيصل ، **حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول** ، ط5 ، دار العلم للملايين 1980 ، ص208 وما بعدها .

(2) العش : يوسف ، **الدولة الأموية** ، دمشق : دار الفكر . 1988 ، ص254 - 255 .

(3) عبداللطيف ، عبدالشافي : **العالم الإسلامي في العصر الأموي** ، القاهرة : دار سياسة 1984 ، ص352 .

(4) أحمد ، لبيد إبراهيم : ذا النون طه عبدالواحد ، المعاضدي عبدالقادر سليمان : الدولة العربية الإسلامية في العصر الأموي ، جامعة الموصل : دار الكتب للطباعة والنشر ، 1992 ، ص171

(5) فيلهوزن ، يوليوس : **تاريخ الدولة العربية الإسلامية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية** ، ترجمة د .محمد عبدالهادي أبو ريدة ، ط2 : القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1986 . ص417 - 421 .

(6) شعبان ، محمد عبدالحي : **الثورة العباسية** : أبو ظبي دار الدراسات الخليجية ، 1977م . انظر الفصل الرابع بعنوان : الحجاج بن يوسف والمشرق ، ص105 - 136 .

(7) نورد هنا ما ينقله الذهبي في تاريخ الإسلام مما وجده في المصادر المختلفة عن قبيلة باهلة ، وأولها بيت الشعر :

وما ينفع الأصل من هاشم إذا كانت النفس من باهلة

وقال آخر :

ولو قيل للكلب يا باهلي عوى الكلب من لؤم هذا النسب

وقيل لبعضهم «**أيسرك أنك باهلي وأنك دخلت الجنة؟ قال والله بشرط أن لا يعلم أهل الجنة أني باهلي**» . الذهبي ، **تاريخ الإسلام ووفيات مشاهير الأعلام** ، شمس الدين بن احمد بن عثمان ، **حوادث وفيات** 81 - 100 ، دار الكتاب العربي ، بيروت 1993 . ص455 . وعند ابن خلكان ، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** ، ج4 ، دار صادر بيروت ، 1969 ، ص90 ، أن الأشعث وابن قيس الكندي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : «**أتتكافأ دماؤنا؟ فقال «نعم» ، ولو قتلت رجلا من باهلة لقتلتك به**» .

(8) اليعقوبي ، أحمد بن ابي يعقوب : **تاريخ اليعقوبي** ، مج2 ، بيروت : دار صادر 1970 ص 2 /287 .

(9) ابن الكلبي ، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي : **جمهرة النسب** ، ط1 ، بيروت : مكتبة النهضة 1911 ، ص493 .

(10) H.Gibb, **The Arab Conquest in Central Asia,** London, 1923, P.29

(11) ابن أعثم الكوفي ، أبو محمد احمد بن أعثم : **الفتوح** ، ج7,8 ، ط1 ، بيروت : دار الكتب العلمية 1986 . انظر مراسلات الحجاج لقتيبة في ص177 ,184 ,183 .

(12) يذكر ابن الاثير 583/4 ، أن قتيبة اغتمّ كثيرا لموت الحجاج وتمثل يقول :

لعمري لنعم المرء من آل جعفر بحوران أمسى أعلقته الحبائل

فإن تحي لا أملل حياتي وإن تمت فما في حياة بعد موتك طائل

(13) ابن الأثير أبو الحسن علي بن أبي الكرم : **الكامل في التاريخ** ، ج4 بيروت : دار الكتاب العربي 1985 . 583/4 .

(14) ابن الجوزي ، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد (ت597هـ) : **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم** ، 12/7 .

(15) ابن الأثير 138/4 ، ابن الجوزي 12/7 .

(16) ابن الجوزي 12/7 .

(17) اليعقوبي 285/2 .

(18) اليعقوبي 288/2 .

(19) ابن الأثير 134/4 .

(20) الدينوري ، ص280 ,327 .

(21) «مدينة وكورة واسعة مما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان في زاوية من ناحية هيطل ، من جهة مطلع الشمس على يمين القاصد لبلاد الترك ، كثيرة الخير واسعة الرستاق ، يقال كان بها أربعون منبرا ، بينها وبين سمرقند خمسون فرسخاً» انظر ياقوت الحموي ، **معجم البلدان** ، ج4 بيروت : دار صادر د .ت . ص253 .

(22) اليعقوبي 295/2 .

(23) يرد اسم هذا الرجل عند البلاذري هكذا : هبنقة العائشي ، وهو عند ابن أعثم والطبري والمصادر الأخرى : يزيد بن ثروان هبنقة العبسي ، وسنعرّفه أكثر في موضعه .

(24) البلاذري ، أبو الحسن البلاذري ، **فتوح البلدان** ، بيروت : دار الكتب العلمية ، 1978 ، ص412 .

(25) البلاذري ، ص412 .

(26) البلاذري ، ص412 .

(27) البلاذري ، ص412 .

(28 البلاذري ، ص412 .

(29) ابن أعثم 189/4 .

(30) ابن أعثم 188/4 .

(31) البلاذري 414 ، اليعقوبي 295/2 .

(32) ابن اعثم 188/4 - 189

رمـاني سليمـان بأمر أظنـه سيحمله مني على شـر مركب
رمـاني بجبار العراق ومـن له على كل حي حد ناب ومخلب
وللموت خير من حياة ذليلـة وحبل ضعيف قد وهي متقضب
وللترك أدنى في الـوداد مودة وأقـرب منـي مـن بنـيّ المهلـب

(33) ابن أعثم 189/4 .

(34) ابن أعثم 190/4 .

(35) اليعقوبي 295/2 .

(36) لا توضح الروايات عند أي نهر ترك قتيبة جنودا يمنعون الناس من العودة . وعند النظر إلى الخريطة نرى أن النهر القريب من فرغانة هو نهر إيلاف ، وهو فرع من نهر سيحون . أما نهر جيحون فيبعد كثيرا عن فرغانة إلى الغرب ، ونحن نرجح أن يكون قد ترك جندا عند نهر إيلاف القريب من فرغانة ، وهو ما يضمن بقاء الجند في معسكره . حسين مؤنس ، **أطلس التاريخ الإسلامي** ، دار الزهراء للإعلام العربي ، 1987 ، خريطة رقم 64 ، ص118 .

(37) ابن الأثير 135/4 .

(38) ابن أعثم ، 190/4 .

(39) ابن أعثم 190/4 .

(40) ابن أعثم 191/4 ، الطبري 507/6 - 508 ، مجهول 17/3-18 ، ابن الجوزي 18/7-19 .

(41) الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير : **تاريخ الرسل والملوك** ، ج6 ، ط4 ، القاهرة : دار المعارف 1964 ، 508/6 .

(42) الطبري 508/6 .

(43) ابن أعثم 193 - 194 .

(44) شعبان ص137 - 138 .

(45) اليعقوبي 294/2 - 295 .

(46) اليعقوبي 296/2 .

(47) الطبري ، 326/6 وما بعدها . انظر كذلك عبدالشافي ، ص507 - 516 .

(48) مما يشير إلى أن الخليفة سليمان استعمل عيونا وأعوانا سريين لمعرفة نوايا قتيبة ، ومن ثم الإسهام في درء خطر التمرد قبل وقوعه ، ما يورد الطبري 508/6-509 ، من رواية متعلقة بأحد أعوان الخليفة من بني تميم صالح بن عبدالرحمن الذي قدم إلى العراق فوجه توبة بن أبي أسيد العنبري للاطلاع على نوايا قتيبة «**فوجهني إلى قتيبة ليطلعني طلع ما في يده**» ثم يصف الرجل كيف كتم مهمته عن رفيق سفره مما حمل رفيق السفر إلى أن يقول له «**أراك في أمر جسيم وأنت تكتمني**» لكن الرجل لم يتم مهمته إذ تلقاه الناس بقتل قتيبة وهو بحلوان .

(49) الطبري 509/6 .

(50) رجل يضرب به المثل في العي والخبال ، انظر الثعالبي ، ص127 .

(51) حول يزيد بن ثروان الذي استخدمه قتيبة في خطبته للتشبيه يورد الثعالبي في ثمار القلوب في باب «فيما يضاف وينسب إلى رجال مختلفين «أي فيما يضاف وينسب إلى رجال ارتبطت بأسمائهم معان شاعت بين الناس ، وفيما يخص هبنقة هذا فقد اتصف بالحمق فقيل «**حمق هبنقة**» الثعالبي ، أبو منصور عبدالملك بن محمد ابن إسماعيل (429) ، ثمار **القلوب في المضاف والمنسوب** ، دار المعارف القاهرة ، 1965 ، ص124 ، وفي موضع آخر من الكتاب يورد الثعالبي حكايات تبين حمق هبنقة وبلادته وما ارتبط باسمه من شعر للاستشهاد على الحمق ، ص243 - 244 .

(52) الطبري 509/6-511 . وهناك زيادات طفيفة عند ابن أعثم 7-195/8 ، لهذه الخطبة ولكنها لا تخرج عن السياق العام . ولعل أهم الزيادات في الفقرة التالية : «**أما والله لئن وليكم يزيد بن المهلب ليعصبنكم عصب النسعة ، وليقر عنكم قرع المروة . قال : فسكت الناس فما أجابه بشيء ، فجعل يتمثل بهذا البيت**

إن أمرأ ملك اليمامة كلها أعطى الملوك مقادة لم يضلل .

(53) الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت 255هـ) : **البيان والتبيين** ، مج 2 ، دار مكتبة الهلال .90/2 1992 . وقد وهم المحقق فشكل كلمة الخلع وجعلها مبنية للمجهول فانقلب المعنى وصار أن سليمان هو الذي خلع قتيبة ، وقد لزم التنبيه .

(54) ابن أعثم 189/4 : **أقتيب إنك قد أتيت عظيمة فـانظر قتيبة أين أين المهـرب**
أصبحت ناكث بيعة أعطيتها طوعا فجلدك للخلافة أجرب

(55) انظر الهامش السابق .

(56) ابن أعثم 196/4 .

(57) اليعقوبي 295/2 .

(58) اليعقوبي 95/2 .

(59) البلاذري ، ص 414 - 415 .

(60) الطبري 527/5 .

(61) الطبري 527/6 .

(62) الطبري 527/6 .

(63) البغدادي ، عبدالقادر بن عمر البغدادي : **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب** ، القاهرة : مكتبة الخانجي . 83/9.1988 .

(64) السمعاني ، أبو سعيد عبدالكريم بن محمد بن منصور التميمي : **الأنساب** ، ج1 ، بيروت : دار الكتب العلمية ، 1988 ، ص275 .

(65) ابن الأثير 142/4 .

(66) النرشحي ، أبو بكر محمد بن جعفر : **تاريخ بخارى** ، عربه عن الفارسية أميم عبدالمجيد المجذوب ، القاهرة : دار المعارف 1980 ، ص80 .

(67) ابن أعثم 195/4 .

(68) انظر هامش رقم 7 .

(69) الثعالبي 119 .

(70) الطبري 511/6 .

(71) يظهر ذلك فيما رواه النرشحي صاحب تاريخ بخارى ص80 ، عند حديثه عن تقسيم بخارى بحيث بدأ قتيبة بربيعة ومضر ومنح الباقي لأهل اليمن .

(72) في كتاب **الإيناس في علم الأنساب** للحسين بن علي بن الحسين الوزير المغربي (ت418) دار اليمامة ، السعودية ، 1980 ص81 ، حديث عن قبيلين كلاهما يسمى بكر بن وائل ، الأول من ربيعة والثاني من قبائل سعد العشيرة السبئية اليمنية . والمقصودون هنا بكر بن وائل من ربيعة الذين تظهر أصداء تحالفاتهم مع أهل اليمن في أكثر من حرب .

(73) الطبري 511/6 .

(74) ابن الاثير 140/4 .

(75) الطبري 511/6 . ابن الأثير 140/4 .

(76) الطبري ، 511/6 - 512 .

(77) مجهول : **العيون والحدائق خلافة الوليد بن عبدالملك إلى خلافة المعتصم** ، ج3 ، بغداد : مكتبة المثنى 1869 3./18 .

(78) الطبري 512/6 .

(79) الطبري 512/6 .

(80) شعبان ، ص133 .

(81) البغدادي 372/7 .

(82) ابن الأثير 141/4 .

(83) ابن خلدون : **كتاب التاريخ** ، ج5 ، بيروت ، القاهرة : دار الكتاب المصري ، واللبناني ، 1999 ، ص150 .

(84) ابن أعثم 201/4 .

(85) الطبري 518/6 .

(86) ابن أعثم 204/4 .

(87) ابن خياط : **تاريخ خليفة بن خياط** ، ط2 . بيروت : دار القلم ومؤسسة الرسالة ، 1977 ، ص313 تقول الرواية بعد استبدال الاسم فيها باسم زعيم تميم «**أتيت حضين بن المنذر حين سار الناس إلى قتيبة فقال لي : ما صنع القوم؟ قلت ما أراهم إلا قاتليه إن وصلوا إلى قتله ، فأطرق طويلا ثم قال : يابن أبي حاضر كم ترى في هذا العسكر من فرس ودابة وبغل وحمار؟ قلت : مئة ألف . قال : فوالله لو انتخبوا من ذلك عشرة آلاف ألف ، ثم بعثوا كل واحد في وجه يطلبون مثل قتيبة ما قدروا عليه**» . وكما ذكرنا فإن هذا القول يصدر عن صديق مقرب لا عن شخص شارك وأعان على قتله .

(88) ابن أعثم 527/6 .

(89) سبق أن ألمحنا إلى كتاب مهدي عماش الموسوم **قتيبة بن مسلم الباهلي** وما فيه من إدانة صريحة للخليفة سليمان ، وقبله كتب المستشرق آرمنوس فامبري ، عن محاولة الخليفة الجديد استمالة فريق من جند قتيبة إليه بعد أن فشل في التغرير بأمير خراسان . . فامبري ، لآرمنوس ، **تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر** ، ترجمة أحمد محمود الساداتي ، مطابع شركة الإعلانات الشرقية ، القاهرة 1970 ، ص70 . وهو على العموم كتاب قديم ومعظم معلوماته مغلوطة وقد عفا عليها الزمن .

(90) من ذلك ما ذكره الدكتور عبدالشافي ، **العالم الإسلامي في العصر الأموي** ، ص352 ، بأن قتيبة تعجل الخلع ، وأن الخليفة كان أقره على ولايته تكريماً له .

(91) المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين (ت 346 هـ) : **التنبيه والإشراف** ، بيروت : دار التراث ، 1968 ، ص275 .

(92) البغدادي 372/7-373 .

(93) الطبري 526/6 .

(94) انظر مجموعة **الرسائل الكمالية (8) في الأنساب ، نسب عدنان وقحطان** ، لأبي العباس محمد ابن يزيد المبرد (ت 285) مكتبة المعارف ، الطائف د .ت ص30 ، يذكر المبرد في هذه الصفحة صلة قيس عيلان بمضر وصلة قتيبة بقيس عيلان ، وترد عند ابن عبدالبر أشعار تمجيد لقيس عيلان ، لكن يبدو أن تلك الأمجاد المرصودة لقيس عيلان لم تنسحب على باهلة بوصفها قبيلة منحدرة منها ، فكان ما كان من استنكاف العرب من نسب باهلة .

(95) الطبري 519/6 . ابن الأثير 142/4 .

(96) ابن الأثير 142/4 .

(97) ابن الأثير 142/4 .

(98) ابن أعثم 196/4 . يتحدث ابن أعثم هنا عن نصيحة أحد الوجهاء لقتيبة بالإذن للناس في العودة ، أو إعطائهم حقوقهم . أو الاستعداد لحربهم بالأعاجم ، فيرفض قتيبة كل ذلك ، ثم يخبره الرجل أنه إذاً مقتول .

(99) من شعر الفرزدق التميمي يفخر بوقعة وكيع :

ومنا الذي سل السيوف وشامها عشية باب القصر من فرغان
عشية ود الناس أنهم لنا عبيد إذ الجمعان يضطربان
فيجزى وكيع بالجماعة إذ دعا إليها بسيف صارم وبنان

ومن رثاء خصمه جرير نقرأ الأبيات التالية عند ابن خلكان 88/4

ندمتم على قتل الأغر ابن مسلم وأنتم إذا لاقيتم الله أندم
لقد كنتم من غزوه في غنيمة وأنتم لمن لاقيتم اليوم مغنم
على أنه أفضى إلى حور جنة وتطبق بالبلوى عليكم جهنم

ومن رثاء قتيبة نقرأ لشاعر باهلي هو عبدالرحمن بن جمانة ما يلي :

كأن أبا حفص قتيبة لم يسر بجيش إلى جيش ولم يعل منبرا
ولم تخفق الرايات والجيش حوله وقوف ولم يشهد له الناس عسكرا
فما رزئ الإسلام بعد محمد بمثل أبي حفص فبكيه عبهرا

(وهي أم ولد لقتيبة)

انظر الأشعار في الطبري 520/6-521 ، ابن الاثير 143/142/4 .

* * *